

الإمام محمد عبده مجدداً (مشكلة الجمال والفن)



د. سلوى محمد نصره (*)

مقدمة

تعد دعوة الإمام محمد عبده^(١) (١٢٦٦-١٣٢٣هـ/٨٤٩-١٩٠٥م) من الدعوات التجديدية الرائدة التي لم تقف عند حد الدعوة للعودة إلى الأصول الأولى للإسلام واستلهم منهج السلف الصالح، وإنما حاولت أن تستوعب

(*) أستاذ مساعد بقسم الفلسفة - بكلية البنات - جامعة عين شمس

(١) الشيخ محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ/٨٤٩-١٩٠٥م) هو محمد عبده بن حسن خير الله من آل تركمان، من قرية محلة نصر بمرکز شبراخيت من أعمال مديرية البحيرة في أسرة تعتز بكثرة رجالها ونسبها، مولده: ولد الإمام في شبرا (من قرية الغربية بمصر). (أنظر: خير الدين الزركلي- الأعلام- دار العلم للملايين - ١٩٩٠م- ط ٩- ٢٥٢/٦). ألقابه: أطلق على الشيخ محمد عبده الكثير من الألقاب فهو الشيخ محمد عبده لتولي منصب شيخا الأزهر، كما أطلق عليه لقب الإمام ومن الأسباب التي أضفت على الإمام لقب الإمامة تقلده منصب الإفتاء وكيف اتجهت إليه الأنظار عندما تسلم هذا العمل وكان مميزاً فيه للإحاطة بجميع المعارف والعلوم التي من شأنها أن ترفع قدره وتجمع الناس حوله بحكم ما يتمتع به من حجة قوية تدين العلماء وتوجههم نحوه عن قناعة وإدراك، وسعة اطلاعه وشمول علمه، في كل ما يتعرض له، بحيث يبدو وكأنه قد أحاط علماً بكل علوم عصره، وتداوله لكثير من فنون العلم وأغراضه حتى أصبح المعلم والمفسر والمصلح والداعية والمفتي في آن واحد، وكيف أدخل الرعب على أرباب الجهل وأدعى العلم بمحاربه للبدع والخرافات وهدم صنم التقليد وفتح الباب أمام إعمال الفكر وإبداع الرأي في الإلتزام بالكتاب والسنة ولا خروج عليهما. (د. عبد الغفار عبد الرحيم- الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير- مطبعة الحلبي- ص ١٠٣).

قضايا العصر وتصيبها في قالب إسلامي مميز يمكنها من مواجهة تحدي الحضارة الغربية، لذلك فقد رفض الإمام محمد عبده الاتجاه القائل باقتصار الدعوة للتجديد والإحياء داخل الإسلام ذاته دون مراعاة أو اهتمام بالمشكلات الخارجية إدراكاً منه لمطالبها المتمثلة في إهمال التطورات التاريخية وتغير الظروف التي يمر بها المسلمون، وكذلك لكونها تجعل المجتمع الإسلامي مغلقاً على نفسه غير مدرك لأبعاد رسالته في الدعوة الدائمة لدين الله بين شعوب الأرض.

وقد جاء مذهب الإمام محمد عبده في التجديد محاولة للتأليف بين حاجات الإصلاح العلمي وضرورات التجديد الديني أي بين العلم والدين، والعقل والنقل.

إن التجديد الذي أراده الإمام محمد عبده لم يكن يقف فقط عند تنقية الدين من البدع والخرافات والإضافات، وإنما كان تجديدًا كاملاً متكاملًا، يستلهم بالعقل الحديث، عقلانية التراث الإسلامي، ويضيف لمعطيات هذا التراث ما يلانمها وينميها من علوم العصر وثمرات الحضارات الأخرى، وذلك حتى يكون هذا التجديد وأنصاره أولياء للعلم وأحباء للمدنية، يقدمون للأمة البديل عن الجمود وعن التغريب في ذات الوقت.

وقد عمل الإمام على فض الخصومة المتوهمة بين القديم والجديد، والنزاع المقتعل بين الدين والعلم، وأكد أن الإسلام لم يكن قط عدواً للتفكير الحر فيحبه ولا حجر عثرة أمام العلم فيقيده، ولا مناهضاً للمدنية والعمران فيقعده من

يدينون به عن المدنية والتقدم، وأن الإصلاح لا يتحقق إلا بالرجوع إلى الإسلام الأول في بساطته الأولى الخالية من الشوائب وعقيدة السلف المعتمدة على صريح المنقول.

وقد أهتم الإمام محمد عبده في فكره بمسألة الجمال والقبح للوقوف على حقيقتها في الأفعال والأعمال لما لها من أثر بالغ على الواقع النظري والعملي للأمة الإسلامية، ولأهميتها البالغة في القضاء على الوهن والذبول في حياة الفرد والمجتمع، حيث أفنقد المجتمع من كثرة الاعتیاد على القبح القدرة على الإحساس بالجمال الحقيقي، وفقدت الأمة الهمة والنشاط والرغبة في التجديد والعمران مما أحدث خلا في العلاقات بين الأفراد وكذا إيقاع حياتهم.

وقد تطرق الإمام محمد عبده برأيه إلى مشكلة الفن كمصدر من مصادر الجمال بين الحاضر والماضي، ووضح أثر تذوق الجمال في المحسوسات والمعقولات على المستويين الظاهري والباطني وعده إحدى وسائل العلم والمعرفة والاتصال طالما بعد عن اللهو والعبث والتبرك بمن ترسم أو تتحت صورته.

وقد استخدمت في البحث المنهج التحليلي والمنهج المقارن .

وقد تضمن البحث الفصول التالية:

١- التجديد عند الإمام محمد عبده.

٢- الجمال الحسي.

٣- الجمال العقلي.

٤- جمال الطبيعة بين الجمال الحسي والجمال العقلي.

٥- الفن في فكر محمد عبده.

التجديد عند الإمام محمد عبده

أدرك الإمام محمد عبده أنه لإعادة القوة للمجتمعات الإسلامية لابد من إحداث ثورة فكرية في المفاهيم الإسلامية ، لأن التحدي الذي تواجهه هذه المجتمعات في القرن التاسع عشر يختلف عما واجهته من قبل ، فقد كانت كتابات الإمام تكشف بشكل غير مباشر عن عمق إحساسه بضرورة التغيير .

واقترحت الضرورة لتقديم مشروع تجديدي معرفة مواطن الخلل والتخلف والاضطراب ، لأن لكل مجتمع ظروفًا مختلفة تؤثر فيه ، فتحديد خطوات المشروع التجديدي يكون على أساس علاج مواطن وأسباب الخلل والتخلف ، ثم احتوائها خلال مسيرة البعث والتجديد .

فهناك آثار سيئة نتجت عن سيطرة التقليد ، فقد ترتب على غلق باب الاجتهاد أن ضعفت روح الابتكار واكتشاف الجديد من مظاهر التطور المادي والفكري ، وعمق من هذا الضعف استمرار الاعتقاد بأن المسلمين هم أقوى الأمم حيث قال محمد عبده:

" لقد أخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر فمال إلى الكسل وقعد عن العمل ، ظن أن الخير ملازم لعنوان المسلم ، كما أخطأ في فهم معنى الطاعة لأولى الأمر والانقياد لأوامرهم ، فألقى مقاليدته إلى الحاكم ووكّل إليه التصرف

في شئونه ، ثم أدبر عنه حتى ظن أن الحكومة يمكنها القيام بشئونه جميعاً من إدارة وسياسة " (٢).

وقد اعتبر الإمام محمد عبده أن الجمود الذي أصاب العقيدة والمسلمين سببه رداءة التقليد كنتيجة من إهمال العقل .

فقال " وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشؤه سوء الاعتقاد الذي نشأ من رداءة التقليد ، والجمود عند حد ما قال الأول بدون بحث في دليله ولا تحقيق في معرفة حاله ، وإهمال العقل في العقائد على خلاف ما يدعو إليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة " (٣) .

ومن الواضح أن نشأة الشيخ محمد عبده وجذوره الأولى قد حددت الوجهة التي يرتضيها في الإصلاح والتجديد هدفاً ووسيلة ، فالهدف هو حركة تصحيحية إسلامية جعلته يركز دائماً على ضرورة إعادة فتح باب الاجتهاد في الشريعة الإسلامية الذي كان يعني عنده تحرير الفكر من كل عائق ، وأكد الشيخ أن أبواب الاجتهاد لا بد أن تظل مفتوحة لحل جميع المسائل التي تثيرها ظروف الحياة المتجددة أبداً ، ورمى الذين يوحون بإغلاق هذا الباب بالكفر والضلال (٤).

(٢) محمد عبده - رسالة التوحيد في د. محمد عمارة - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ٣ ص ٤٨١-٤٨٢.

(٣) محمد عبده - المسلمون والإسلام - كتاب الهلال - عدد (٤١٧) - ص ١٤٧ .

(٤) د. عثمان أمين - رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده - ص ٧٨ ، وكذلك : د. عبد العاطي محمد أحمد - الفكر السياسي للإمام محمد عبده - ص ٩٣ .

والوسيلة للتقدم والمدنية والتجديد هو العلم عند الإمام محمد عبده حيث قال:
 " نتكلم في العلم من جهة ما نقول ، ويقول المرشدون إنه نور العالم الإنساني
 وشمس وجوده ، وروح حياته ، وأنه وسيلة التقدم في المدنية وكمال الحقيقة
 الإنسانية ، وهو سيف القوة وينبوع الثروة ، وما شابه ذلك من الأوصاف الحقّة
 التي أجمع عليها العقلاء " (٥) .

وعلى أية حال فلم يكن التجديد كما يرى الإمام محمد عبده مقتصراً على
 إحداث تغيير ذاتي داخل الفهم الإسلامي ، أي لم يكن رد فعل تخلف المسلمين
 في الأحداث الاجتماعية والفكرية فحسب ، وإنما شمل اتجاهه التجديدي رد
 الفعل الإسلامي إزاء تحدي الحضارة الغربية وسيادة العلم والفلسفات المختلفة
 القادمة من الغرب ، مع الاستفادة الإيجابية من حقيقة التأثير والتأثر في الواقع
 المدني والعمراني.

وإزاء هذه المشكلة ظهر من رفضوا الحوار بين الإسلام والحضارة
 الأوروبية واعتبروا ذلك منهجا يجعل الإسلام دائماً في موقف الدفاع ، لأنه
 يكون دائماً واقعا تحت التأثير الثقافي القوي للحضارة الغربية في مرحلة يمر
 الإسلام فيها بالضعف ، ويعتبر أصحاب هذا الرأي أن محمد عبده عندما رأى
 أن الإسلام لا يتعارض مع العلم وقام بالرد على أفكار-أرنست رينان -
 ودارون - فيما يتعلق بالتطور المادي ، تسبب في إخضاع القرآن للنظريات
 العلمية ، وهي بطبيعتها متغيرة (٦) .

(٥) محمد رشيد رضا- تاريخ الأستاذ الإمام - ج٢- ص ١٧٦.

(٦) د. أحمد محمود صبحي - بعض جوانب التجديد في الفكر الإسلامي - ص ٦٨ ، وقارن
 : عبد العاطي محمد أحمد - الفكر السياسي للإمام محمد عبده - ص ١١٢ .

لكن الحقيقة التي يجب أن يفتن لها الجميع أن القرآن ونصوصه إذا فهمت بعمق بعيدا عن العصبية والإدعاء توافق العلم ونظرياته معها بعد عمق الاستقراء ودقة التبيان فالعلم في حقيقته يظل تقرب من الحقائق وليس الحقائق بذاتها، وكلما ازداد العلم تقدما كلما أزيل الكثير من الحجب عن الحقائق وزاد الاقتراب منها .

فالتجديد في رأي هؤلاء إنما يأتي من داخل الإسلام وبالإسلام وبعيدا عن تأثير الحضارة الغربية بقيمها ومفاهيمها ، هذا الرأي يعبر عن وجهة نظر تريد أن تقصر حركة التجديد على عملية الإحياء داخل الإسلام ذاته استنادا إلى مبدأ الاجتهاد ودون مؤثرات خارجية وهي بالطبع تهمل أثر التطورات التاريخية وتغير الظروف الموضوعية التي يمر بها الإسلام والمسلمون ^(٧) .

ولكن نظرة محمد عبده كانت مختلفة عن ذلك في جوانب كثيرة فإيمانه بالتطور والتغير كان يعكس تمييزه بين الإسلام على مستوى الأصول الدينية التي لا تقبل التغير ، والإسلام وقد أصبح أسلوبا في الحياة الاجتماعية ، وعندما نظر إلى الحضارة الغربية كان مدركا للتمييز بين الفلسفة القائمة على الفصل بين الدين والدنيا والتي لا تلتزم بالدين واعتباراته في الحياة الاجتماعية والثقافية وهو ما لم يقبله ، وبين الاتجاه الذي يحترم العقل ويؤمن بقدرة الإنسان على توجيه حياته بما يحقق مصالحه المتجددة ، وهذا الاتجاه لا يرفض الدين وإنما يمزج بين قدرات العقل والاعتبارات الدينية ، فعملية التطور متعددة الجوانب والمقومات كما أنها نسبية أي ليس لها نمط ثابت بعينه ^(٨) .

(٧) عبد العاطي محمد أحمد - الفكر السياسي للإمام محمد عبده . ص ١١٢ .

(٨) Ali dessouki , (Towardsa Comparative Study of Secularization) Islam and the Modern Age , Vol , no , 2 (1971) pp50.

هذا وتعد رسالة التوحيد مثلاً للمنهج التجديدي العقلاني المستنير في رأي الدكتور محمد عمارة ، وكذلك موضوعها وهو " علم التوحيد " الذي يعتبره الإمام محمد عبده " ركن العلم الشديد " كما يتجلى في أسلوبها خصائص أسلوب الإمام محمد عبده كراند في التجديد للغة هذه الأمة وأسلوب كتابتها ، بعد عصر الركاقة والمحسنات اللفظية ^(٩) .

وقد ربط الإمام محمد عبده في رسالة التوحيد بين العقائد وبين وظائفها في واقع الإنسان فلألوهية دور عظيم في تحرير روح الإنسان وعقله .. الأمر الذي جعل لهذا الإنسان مكانة سامية في الإسلام ، مكانة الخليفة عند الله ، المدعو لأن يتخلق بأخلاق الله ^(١٠) .

ففي رسالة التوحيد تتجلى نصرة الإسلام للعقل كي يهزم التقليد ، الذي قتل روح الريادة والمخاطرة والإبداع في الأمة ، فالإسلام : (قد أنحى على التقليد، وحمل عليه حملة بددت فيآلقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم ... لقد علا صوت الإسلام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم ! .. ولذلك أطلق الإسلام سلطان العقل من كل ما قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استبعده ، وردّه إلى مملكته يقضي بحكمه وحكمته ، مع الخضوع لله وحده ! ..) ^(١١) .

(٩) محمد عبده - رسالة التوحيد - المقدمة - ص ٨ .

(١٠) المصدر - السابق - ص ٩ .

(١١) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٩ .

أيضاً قال محمد عبده بصدد ما سبق: (لقد سجل الإسلام الحمق والسفاهة على الآخرين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان .. وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيه والانتفاع بما وصل إليه من أثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه ؟!) (١٢) .

ويتضح مما سبق أن آراء محمد عبده تدل على أنه كان سابقاً لعصره وذلك ما ذهب إليه دكتور عاطف العراقي حيث رأى أنه كان يتمتع بعقلية نقدية دقيقة من النادر أن تجد مثيلاً لها ، ويدل على ثراء فكره وعمق اتجاهه ، ما تركه من بصمات بارزة على مسار فكرنا العربي الحديث ، فهو يعد علامة مضيئة في تاريخنا الفكري ورائداً من الرواد الكبار الذين سعوا إلى التجديد ، ولذلك أصبح من الضروري الوقوف عند أفكاره وسبر أغوارها (١٣) .

وقد عد الإمام محمد عبده الجمال والقبح إحدى مجالات التجديد الجديدة بالاهتمام والإحياء وذلك للوقوف على حقيقتها في الأفعال والأعمال لما لها من أثر بالغ على الواقع النظري والعملية للأمة الإسلامية ، ولأهميتها البالغة في القضاء على الوهن والذبول في حياة الفرد والمجتمع ، حيث افتقد المجتمع من كثرة الاعتیاد على القبح القدرة على الإحساس بالجمال الحقيقي ، وفقدت الأمة الهمة والنشاط والرغبة في التجديد والعمران مما أحدث خلا في العلاقات بين الأفراد وكذا إيقاع حياتهم .

(١٢) المصدر السابق - ص ١٠ .

(١٣) د. عاطف العراقي - العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر - ص ١٨٠ ، ٢١٠ .

وعدَّ الإمام محمد عبده مهمة الجمال هي الارتقاء بروح الأمة وأفرادها على درب الإدراك والاستمتاع بآيات الجمال الإلهي في هذا الكون ، وبالتالي هي سبيل لصياغة الإنسان الرباني الذي يدرك معنى أن الله جميل وأن ربانية الإنسان رهن بتشوقه وتعلقه وسعيه على درب التخلق بالأخلاقيات الجميلة ، والذي هو في حقيقته درب الوعي بالجمال الإلهي المبتوث في هذا الوجود وأيضا الاستمتاع بلذات هذا الجمال .

وقد قسم الإمام محمد عبده الجمال إلى قسمين جمال حسي وجمال عقلي.

الجمال الحسي

قسم محمد عبده الجمال إلى : جمال حسي وجمال عقلي ، ووضح أن الجمال الحسي منه ما هو في الإنسان ومنه ما هو في الكون والطبيعة ، وأيقن أن الجمال الإنساني يختلف فيه الأنواق بينما لا تختلف الأنواق في الجمال في الكون والطبيعة ، ويتضح من خلال آراء محمد أنفسنا بالضرورة تمييزا بين الجميل من الأشياء والقبیح منها ، فإن اختلفت مشارب الرجال عبده أن بعض ركانز الجمال تتحقق في الائتلاف والتناسب والنظام حيث يقول أننا (نجد في في جمال النساء ، أو مشارب النساء في معنى جمال الرجال ، فلم يختلف أحد في جمال ألوان الأزهار ، وتنضيد أوراق النباتات والأشجار ، خصوصا إذا كانت أوضاع الزهر على أشكال يمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض ، ولا في قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائها ، وانقطاع البعض الآخر على غير نظام^(١٤) .

(١٤) محمد عبده - رسالة التوحيد- ص ٦٧ .

ويتفق محمد عبده مع أبو حيان التوحيدي (٣١٢ هـ / ٩٢٤ م - ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م)^(١٥) في الجمال فيرى التوحيدي أن الجمال كمال في الأعضاء وتناسب في الأجزاء مقبول عند النفس^(١٦) .

وقد قرر التوحيدي أيضاً أن الجمال الحسي من ضمن مناشئ الجمال الخمسة وهو ما عبر عنه بالمنشأ الطبيعي أي ما يرتبط بالحواس حيث يقول : (ومناشئ الحسن والقبح كثيرة منها طبيعي ، ومنها بالعادة ، ومنها بالشرع ، ومنها بالعقل ، ومنها بالشهوة)^(١٧) .

وقد أشار أيضاً الإمام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ)^(١٨) إلى أنه يوجد في الإنسان قوى لإدراك الجمال باطنية وظاهرية (أما القوى الظاهرية فموضوعاتها تتركز فيما يتعلق بالحواس الخمس من حسن الخلقة والهيئات ، وصفاء الصوت ، وطبيعة الملمس ، وما يتعلق كذلك بالشم وما يتذوقه اللسان)^(١٩) .

وأشار محمد عبده إلى أثر إدراك وتذوق الجمال على النفس الإنسانية بما يعتمدها من بهجة وإعجاب ، أما أثر القبح على النفس فيكون اشمئزازاً

(١٥) أبو حيان التوحيدي : هو (علي بن محمد بن العباس) ويرجح أنه ولد عام ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م ، وتوفي عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م (ابن خلكان - وفيات الأعيان وأنباء الزمان ص ١٩٧) .

(١٦) أبو حيان التوحيدي - الهوامل والشوامل - م ٥٢ - ص ١٤٠ .

(١٧) أبو حيان التوحيدي - الإمتاع والمؤانسة - ج ١ - ص ١٥٠ .

(١٨) أبو حامد الغزالي : هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، لقب بحجة الإسلام ، ولد عام ٤٥٠ هـ ، وتوفي عام ٥٠٥ هـ (الصفدي - الوافي بالوفيات ج ١ - ص ٢٧٤) .

(١٩) أبو حامد الغزالي - إحياء علوم الدين - ج ٤ - ص ٢٩٩ .

وجزعا حيث يقول : " وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة وإعجابا ، ومن القبح اشمئزازا أو جزعا " (٢٠).

ويرى أنه كما يقع هذا التمييز في المبصرات يقع في غيرها من المسموعات والملبوسات والمنزقات والمشمومات ، كما هو معروف لكل حساس من بني آدم بإحدى تلك الحواس (٢١).

وأن التمييز بين الجمال والقبح في الأشياء المحسوسة هو خاصية تميز الإنسان- في رأي محمد عبده- على الرغم من تميز بعض الحيوانات ببعض منها حيث يقول " وليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح في الأشياء ، ولكن لا يخالفنا أحد في أن من خواص الإنسان ، بل وبعض الحيوان، التمييز بينهما " (٢٢).

فيقرر محمد عبده أن الجمال الحسي هو ما يرتبط بالحواس سواء من حيث البصر كروحي الهينات الجميلة وسواء كانت في الطبيعة أو في الإنسان أو في الحيوان أو النبات، أو في السمع والأصوات الرقيقة والهادرة أو الأصوات الصافية للرائقة سواء أكان طبيعياً أم بواسطة أداة ، وكذلك قد يدرك باللمس كالشيء اللامع والمصقول ، أو يدرك بالشم والروائح الذكية العطرة ، أو يدرك بالذوق عن طريق اللسان كالطعام والشراب وما شابه ذلك.

(20) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٦٧ .

(21) المصدر السابق- نفس الصفحة .

(22) المصدر السابق- نفس الصفحة .

بينما يرى التوحيدي أن " السمع والبصر أخص بالنفس من الإحساسات الباقية ، لأنهما خادما النفس في السر والعلانية ومؤنساها في الخلوة (٢٣) .

هذا ويتفق رأي الغزالي مع رأي محمد عبده في مدركات الحواس فيقول " فلذة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة ، ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة ، ولذة الشم في الروائح الطيبة ، ولذة اللب في الطعوم ولذة اللمس في اللين والنعومة " (٢٤) .

وقد عدَّ محمد عبده أن التمييز بين الجمال والقبح له أهمية كبيرة ودور عظيم في قيام الصناعات المتنوعة ، والرقي والعمران حيث يرى أنه " على هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها ، وبه ارتقى العمران في أطواره إلى الحد الذي تراه عليه الآن ، وإن اختلفت الأذواق ففي الأشياء جمال وقبح " (٢٥) .

ومحمد عبده كمفكر مسلم تأثر بالقرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة أيقن أهمية الجمال الظاهري من زينة ونظافة وحلي واستنكر قول من ذهب إلى غير ذلك.

فيقول في الزينة والطيبات: " أن الإسلام أباح لأهله التجميل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع بالمشتبهات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية، والوقوف عند الحدود الشرعية ، والمحافظة على صفات

(23) أبو حيان التوحيدي - الهوامل والشوامل - م ٩٣ - ص ٢٣٠ .

(24) أبو حامد الغزالي - إحياء علوم الدين - ج٤ - ص ٢٩٦ .

(25) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٦٧ .

الرجولة ، جاء في الكتاب العزيز: " بابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعملون، قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون" (٢٦)(٢٧).

أيضاً يري محمد عبده أن الله عدُّ النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التي يذكرنا بها فضله ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره فقال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: " والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس. إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون" (٢٨) وقال الله تعالى في كتابه الكريم وفي نفس السورة: " وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" (٢٩) (٣٠).

(٢٦) سورة الأعراف الآية ٣١، ٣٢، ٣٣ .

(٢٧) محمد عبده- الإسلام دين العلم والمدنية ص ١٤٢-١٤١ .

(٢٨) سورة النحل الآية ٨، ٧، ٦، ٥ .

(٢٩) سورة النحل الآية ١٤ .

(٣٠) محمد عبده - الإسلام دين العلم والمدنية - ص ١٤١-١٤٢ .

وإذا كان الله قد أباح الطيبات من أكل وشرب ولباس وزينة - في رأى محمد عبده- إلا أنه حدّها بحدود لتسع مصالح البشر أجمعين وحظر منها ما فيه ضرر للإنسان أو لغيره.

فقال سبحانه وتعالى: "كلوا واشربوا ولا تسرفوا"^(٣١).

وقل الله تعالى: "لأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم"^(٣٢).

وقال (صلي الله عليه وسلم): "إياكم وخضراء الدمن"^(٣٣).

فقد ذهب محمد عبده أن الله أباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما يشاء أكلا وشرباً ولباساً وزينة ، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضاراً بنفسه، أو بمن يدخل في ولايته ، أو ما تعدي ضرره إلى غيره"^(٣٤).

وذهب أيضاً إلى أن الله وضع حدوداً عامة خاصة بالجمال والزينة والطيبات بما يكفل مصالح كافة البشر وتستقيم به الحياة"^(٣٥).

وقد أدرك محمد عبده أن الجمال الحسي منه ما هو جميل بذاته (جمال في نفسه) ومنه ما هو جميل بآثره لما ينجم عنه من لذة أو متعة حيث قال:-

(١) سورة الأعراف الآية ٣١.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢١.

(٣٣) الحديث رواه الدار قطني في الأفرات ، الرمهرمزي في كتاب الأمثال، ورواه العسكري في الأمثال والقضاعي في إيضاح المتلبس، والدائلي من حديث أبي سعيد الخدري (تخريج أحاديث إحياء علوم الدين- للإمام أبي حامد الغزالي - باب النكاح - (١٣٤٣- ٣٣٩٤) للعراقي - وابن السبكي - والزبيدي جمعه أبو عبد الله محمود محمد الحداد) .

(٣٤) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٣٥) المصدر السابق - ص ١٤٠.

" فمن الأفعال الاختيارية ما هو مُعجب في نفسه ، تجد النفس منه ما تجد من جمال الخلق ، كالحركات العسكرية المنتظمة ، وتقلب المهرة من الألاعيب في الألاعيب المعروفة اليوم (بالجمناستيك) ، وكإيقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها، ومنها ما هو قبيح في نفسه، يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه ، كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع، وكولولة النائحات ونقع (من معاناة ارتفاع الصوت والغبار، وشق الجيوب) المذعورين" (٣٦).

فمن اللذيذ ما يقبح لشؤم عاقبته ، كالإفراط في تناول الطعام والشراب، والانقطاع إلى سماع الأغاني ، والجري في أعقاب الشهوات ، فإن ذلك مفسدة للصحة، مضیعة للعقل، متلفة للمال، مدعاة للعجز والذل، وإنما قبح اللذيذ في هذا الموضوع لقصر مدته، وطول مدة ما يجر إليه عادة من الآلام التي قد لا تنتهي إلا بالموت على أسوأ حالاته ، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الألم (٣٧).

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الألم، وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم ، فالأول كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من أفعال الإنسان ، والثاني كالأكل على جوع والشرب على عطش ، وكل ما يحصل لذة أو يدفع ألماً مما لا يحص عده، وفي هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ والقبيح بمعنى المولم (٣٨).

(٣٦) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٦٩ .

(٣٧) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٧٠ .

(٣٨) المصدر السابق - ص ٦٩ .

ويري محمد عبده أن هذا النوع من الجمال والقبح المحسوس يشترك فيه الحيوان مع الإنسان إلا أن هناك اختلاف بينهما في قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح فقد قال محمد عبده: "قلما يختلف تمييز الإنسان للحسن والقبح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية في سلسلة الوجود، اللهم إلا في قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح" (٣٩).

والجمال الظاهر والنعم والمنافع الحسية التي هي من خلق الله ونعمه على الإنسان تدرك بالحس لكن لا بد من إدراكها بالعقل لينفذ إلى قوانينها وأسرارها وحكمتها، أي أن الجمال الحسي تعلو منزلته ويرتقي بأعمال العقل فيه حيث قال محمد عبده:

"كيف يتسنى للمسلم أن يشكر الله حق شكره ، إذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره لينفذ من ظاهره إلى سره ويقف على قوانينه وشرائعه ، يستخدم كل ما يصلح لخدمته في توفير منافعه؟... كيف يشكر الله إذا تواني في ذلك وقد أرشده الله في كتابه ويسنة نبيه إلى أن عالمه إنما خلق لأجله، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله؟... ويدل على ذلك بقوله: "انظر إلى لطف الإشارة في الآية المتقدمة " قل من حرم زينة الله" الخ حيث قال: " كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون" فأهل

(٣٩) المصدر السابق - نفس الصفحة.

العلم هم الذي يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم ،
ويجمل به هيتهم ، ويجلي به زينتهم" (٤٠) .

وقد جاء الإسلام - في رأي محمد عبده - يخاطب العقل
ويستصرخ الفهم واللب، ويشركه مع العواطف والإحساس في إرشاد
الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية، وبين للناس ما اختلفوا فيه ،
وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين الله في
جميع الأجيال واحد، ومشيتته في إصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم
واحدة ، وأن رسم العبادة على الأشباح إنما هو لتجديد الذكرى في
الأرواح ، وأن الله لا ينظر إلى الصور ولكن ينظر إلى القلوب، وطالب
المكلف برعاية جسده كما طالبه بإصلاح سره، ففرض نظافة الظاهر
كما أوجب طهارة الباطن ، وعدّ كلا الأمرين طهراً مطلوباً ، وجعل
روح العبادة الإخلاص، وأن ما فرض من الأعمال إنما هو لما أوجب
من التطبيع بصالح الملكات إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر" (٤١)،
وكذلك " إن الإنسان خلق هلوفاً ، إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه
الخير منوعاً ، إلا المصلين" (٤٢)، ورفع الغني الشاكر إلى مرتبة الفقير
الصابر، بل ربما فضله عليه وعامل الإنسان في مواعظه معاملة
الناصح الهادي للرجل الرشيد ، فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة

(٤٠) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٦٩ .

(٤١) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٤٢) سورة المعراج الآية ١٩ .

والباطنة، وصرح بما لا يقبل التأويل أن في ذلك رضا الله وشكر نعمته، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا وصول إلى خير العقبي إلا بالسعي في صلاح الدنيا^(٤٣).

الجمال العقلي

إذا كان الجمال الحسي من الأهمية والوضوح في حياة البشر لما له من نصيب وافر وحظ مشترك في القدرة على تناوله من خلال الحواس على الرغم من نسبيته تبعاً لتنوع الخبرات والبيئات والأديان، فإن الجمال العقلي لا يقل أهمية ووضوحاً عنه وإن اختلفت موضوعات كل منهما إلا أن جمال المعقولات لا يدرك إلا لأنفس عارفيه العاقلة وأصحاب البصيرة، كمعرفة الله والوقوف على أوجه الإعجاز في خلقه كخلق الملائكة والسموات والأرض وإدراك ما تتطوي عليه النفس البشرية من صفات تعلي من قدرها وتزكيها حيث قال محمد عبده " هذا في المحسوسات واضح، ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة في الوضوح ما يلم به العقل من الموجودات المعقولة، وإن اختلف اعتبار الجمال فيها، فالكمال في المعقولات كالوجود والواجب، والأرواح اللطيفة، وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه، وتنبهر له بصائر لاحظيه"^(٤٤).

ويتضح أيضاً ذلك في أدراك القبح حيث قال: " وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية، وإن اختلف أثر الشعور ببعض أطواره في الوجدان من أثر

(٤٣) محمد عبده- رسالة التوحيد - ص ١٥٠.

(٤٤) المصدر السابق - ص ٦٨.

الإحساس بالقبيح في المحسوسات، وهل في الناس من ينكر قبح النقص في العقل، والسقوط في الهمة، وضعف العزيمة ؟ ويكفي أن أرباب هذه النقاخص المعنوية يجاهدون في إخفائها ويفخرون أحياناً بأنهم متصفون بأضدادها^(٤٥) .

إن الجمال العقلي هو الجانب غير المنظور بذاته ولكنه منظور بآثاره ، وإنه الجانب الأكبر أهمية والأعظم أثراً .

إن الباطن ليس مستقلاً عن الظاهر المحسوس (الحسي) فآثاره فيه بعيدة المدى متشعبة المسالك ، فالظاهر الحسي مرآة تنعكس عليها صفحة الباطن (الجمال المعقول)، وذلك يدل على أن هناك وشائج قوية بين جمال الظاهر والباطن والجمال المحسوس والمعقول ، فحين يكون الباطن جميلاً باتساقه وتكامله وتناسقه وتوازنه.. فإن هذه الآثار يسجلها الظاهر واضحة جليلة ، وهذا ما تنبه له محمد عبده حيث قال:

"وقد يجمال القبيح بجمال أثره ، ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به، فالمر قبيح مستبشع ، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر ، لكن أثر المر في معالجة المرض ، وعدل الدميم في رعيته، أو إحسانه إليك في خاصة نفسك ، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته ، فإن جمال الأثر يلقي على صاحبه أشعة من بهائه ، فلا يشعر الوجدان منه إلا بالجميل ، ومثل ذلك يقال في قبح الحلو إذا أمز، واشمنزاز النفس من الجميل إذا ظلم وأضر"^(٤٦) .

(٤٥) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٦٨.

(٤٦) المصدر السابق - نفس الصفحة.

وذلك يتفق مع ما ذهب إليه التوحيدي وأبو حامد الغزالي وابن القيم الجوزية^(٤٧) حيث يرى التوحيدي أن من أراد أن يكسب نفسه هيئة جميلة وسجية محمودة عليه بتهذيب الأخلاق وتقويمها وتطهيرها من الآفات^(٤٨).

فقد بين التوحيدي أثر الباطن الكبير، بحيث لا يستطيع الظاهر أن ينفك عنه، فعندما يجمال الباطن، فإنه يفيض من حسنه على الظاهر، وهذا أمر يحدث تلقائياً، يحس به كل الذين يتعاملون مع الإنسان، فذهب إلى أن القيم الأخلاقية والفضائل مثل الحلم والصبر تصبغ الإنسان بهيئة ذات وجهة ووقار، وقد اعتبر فضيلة الحلم زينة ربانية يجمال الله بها عباده حيث قال: "ومنها الحلم، وهو الذي يحليك بحلية ربانية إذا بدوت بها طووعت وخودمت وقوربت وحمدت، والحلم من الخصال المرقية للبشر عن صفات النوع"^(٤٩).

وفضيلة الصبر - كما يرى التوحيدي - تعطي ضياء في وجه الصابر فتبييض وجهه وبالتالي تصبغ الإنسان بهيئة ذات جمال وزينة، وذلك بانعكاس الجمال الباطني نتيجة للتمسك بالقيم الأخلاقية على الواقع المحسوس حيث

(٤٧) ابن القيم الجوزية: هو شمس الدين أبو عبد الله بن الشيخ أبي بكر أيوب بن سعيد الدمشقي الحنبلي، المعروف بابن القيم الجوزية الحنبلي، وهو تلميذ الإمام ابن تيمية ولد عام ٦٩١هـ/١٢٩٢ م وتوفي عام ٧٥١هـ/١٣٥٦ م (الصفدي - السوافي بالوفيات ٢٧٠/٢).

(٤٨) أبو حيان التوحيدي - المقاسبات - مقاسة م ٣ - ص ١٣٩.

(٤٩) أبو حسان التوحيدي - الإشارات الإلهية - ص ١٢٨.

يقول "نزه طرفك عن النظر إلى غير الله ! شرف فكرك بالفكر في عظمة الله! بيض وجهك بالصبر على عبادة الله" (٥٠).

وذلك ما ذهب إليه الغزالي من أثر الباطن على الظاهر الحسي " الكبير خلق باطن ، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة" (٥١).

ثم يوضح ذلك فيقول " إعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل ، كصعر في وجهه ، ونظره شزرا ، وإطراقة رأسه ، وجلوسه متربعا أو متكئا، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبخره، وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله، وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله" (٥٢).

و يؤكد أيضا ابن القيم الجوزية أثر الباطن بقوله : " فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره ، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره" (٥٣).

فيرى أن الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتسبت روحه من تلك الصفات ، فإن المؤمن يعطي مهابة وحلاوة بحسب إيمانه ، فمن رآه هابه، ومن خالطه أحبه ، وهذا أمر مشهود بالعيان" (٥٤).

(٥٠) المصدر السابق - ص ٢٠٤ .

(٥١) أبو حامد الغزالي - إحياء علوم الدين - ج ٣ ، ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٥٢) المصدر السابق - نفس الصفحة .

(٥٣) ابن القيم الجوزية - روضة المحبين - ص ٢٣٢ .

(٥٤) المصدر السابق - ص ٢٣١ .

ويرى محمد عبده أن جمال المعقولات إما جميل بذاته وإما جميل بآثره وهو يدرك بالعقل وبالحس حيث يتساءل:

" هل يمكن لعقل أن لا يقول في الأفعال الاختيارية كما قال في الموجودات الكونية مع أنها نوع منها ، وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية ، إما بنفسها وإما بآثرها، وتتفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما يرد عليها من صور الكائنات؟ .. كلا... بل هي قسم من الموجودات ، حكمها في ذلك حكم سائرها بالبدهة" (٥٥).

إن جمال المعقولات عند محمد عبده غالباً ما يقوم على ما يترتب من أثر الأفعال فيما يتعلق بالنافع والضرار أما ما يتعلق باللذة والألم فيعد من جمال المحسوسات أي أنه ينظر إلى جمال الأثر في المحسوسات من خلال اللذة والألم، وقد ربط بين الجمال المعقول والمنفعة فقال: " ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع ، وما يقبح بما يجر إليه من الضرر ، ويختص الإنسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى إذا أخذ من أكمل وجهاته" (٥٦).

وهذا النوع من الجمال قلما يشارك الإنسان فيه الحيوان لأنه يدرك بالعقل حيث يرى محمد عبده أنه " قلما يشاركه فيه حيوان آخر، اللهم إلا من أخط جهاته، وهو خاصة العقل وسر الحكمة الإلهية في هبة الفكر" (٥٧).

(٥٥) محمد عبده- رسالة للتوحيد - ص ٦٨ .

(٥٦) المصدر السابق - ص ٦٩ .

(٥٧) المصدر السابق نفس الصفحة .

ويعطي محمد عبده أمثلة على الحسن والقبح المرتبط بالمنفعة فيرى أنه يمكن أن يكون الشيء مؤلم ولكنه حسن وذلك تبعاً لمنفعته فقال:

"ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب في الأعمال لكسب الرزق وتأمين النفس على حاجاتها في أوقات الضعف، ومجاهدة الشهوات ، ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حيناً من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب أو على نمط يخفف من رزايا الحياة، إن عدت الحياة مثاراً لها"^(٥٨).

وأيضاً ذكر محمد عبده من أمثلة المؤلم الحسن ما يلي: " ومن المؤلم الذي عده العقل البشري حسناً مقارنة الإنسان عدوه سواء كان من نوعه أو من غيره ، للمدافعة عن نفسه أو عن أنصاره، ومنهم بنوا أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته ، حسب ارتقائه في الإحساس ، ومخاطرته حتى بحياته في سبيل ذلك ، كأنه يري في بذل هذه الحياة أمناً على حياة أخرى تشعر بها نفسه وإن لم يحددها عقله"^(٥٩).

ولزيادة توضيح ما سبق من أمثلة للمؤلم الحسن أشار محمد عبده إلى المقابل من اللذيق المستقبلي فقال: " وعد من اللذيق المستقبلي مد من اليد إلى ما كسبه الغير بسعيه واستشفاء ألم الحقد بابتلاف نفس المحقود عليه أو ماله ، لما في ذلك من جانب المخافة العامة حتى على ذات المعتدي ، ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها"^(٦٠).

^(٥٨) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٧٠ .

^(٥٩) المصدر السابق - نفس الصفحة .

^(٦٠) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٧١ .

ومما لاشك فيه أن الجمال المعقول القائم على التفرقة بين النافع والضار ربط بينه وبين الخير والشر مما جعله محور للتمييز بين الفضيلة والرذيلة مما يعطي من قدره ويزكي أثره وتوابعه في قوة الأمم وعمران مجتمعاتها وعزمها وسعادة أفرادها ، وفي ذلك قال محمد عبده:

"كل هذا عرفه العقل البشري ، وفرق بين الضار والنافع، وسمى الأول فعل الشر والثاني فعل الخير، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة وقد حددهما النظر الفكري على تفاوت في الإجمال والتفصيل للتفاوت في درجات عقول الناظرين ، وناط بهما سعادة الإنسان وشقاءه في هذه الحياة، كما ربط بهما نظام العمران البشري وفساده وعزة الأمم ونزلتها وضعفها وقوتها، وإن كان المحددون لذلك والآخون فيه بحظ الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر"^(١١).

كل هذا من الأوليات العقلية، لم يختلف فيه ملئٌ ولا فيلسوف ، فلأعمال الاختيارية حسن وقبح في نفسها، أو باعتبار أثرها في الخاصة أو في العامة ، والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعاني السابقة ، بدون توقف على سمع^(١٢).

وقد عدّ محمد عبده المنشأ الاجتماعي أحد مناشئ الجمال المعقول والمحسوس لما له من أثر فعال على التربية الوجدانية والنفسية للأفراد ، وكذا

(١١) المصدر السابق - نفس الصفحة.

(١٢) المصدر السابق - نفس الصفحة.

إيقاع الحياة ومظاهرها ، وهو بذلك يدعو لإصلاح الواقع الاجتماعي، وتهذيب ما فيه من خلل وبدع لا أصل عقلي أو شرعي لها فقال: " وخفيف من النظر في أعمال البشر يجليها جميعا ، فلقوة الذاكرة وضعفها ، ولحدة الخيال واعتداله ، واعوجاج الفكر واستقامته أعظم الأثر في التمييز بين النافع والضار في أشخاص الأعمال ، ولأمزجة والأجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم في التخيل والفكر ، بل وفي الذكر" (٦٣) .

فيرى محمد عبده أن الناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ، ومنها ما هو ضار ، وبعبارة أخرى: منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ، ومن عقلانهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق في معرفة ذلك ، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وإن كان مؤلماً في الحال، وإن القبيح ما جر إلى فساد في النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به ، وإن عظمت لذته الحاضرة ، أو لكنهم يختلفون في النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم في أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم ، فلذلك ضربوا إلى الشرفي كل وجه، وكل يظن أنه إنما يطلب نافعاً ويتقي ضاراً (٦٤) .

وقد عدّ التوحيدي من قبل المنشأ الاجتماعي من مناشئ الجمال الخمسة فقال: " ومناشئ الحسن والقبيح كثيرة منها طبيعي ، ومنها بالعادة ، ومنها بالشرع، ومنها بالعقل ، ومنها بالشهوة" (٦٥) .

(٦٣) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٧١ .

(٦٤) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٧٥ .

(٦٥) أبو حيان التوحيدي - الإمتاع والمؤانسة - ج ١ - ص ١٥٠ .

فمنشئ الجمال بالعادة أي الأساس الاجتماعي أي أن يكون جميلاً لأن الناس في المجتمع اعتادوا أن يروا فيه جمالاً ، وهم يطلقون عليه هذا الوصف بحكم الإلف والعادة فهناك أشياء اصطلاح على جمال موضوعاتها وهو ما نجده في المظاهر الاجتماعية من حيث الزى والمسكن وطبائع الاحتفالات ومراسمها.

ومما لا شك فيه أن محمد عبده جمع بين محاسن الفكر المعتزلي والفكر الأشعري حين أقر بأهمية العقل لمعرفة الشرع، وبأهمية الشرع في الحفاظ على العقل من الشطط والتردي ، وكذا بأهمية تفعيل العقل في إطار النقل للوقوف على أوجه الحسن والقبح في الأشياء المستجدة والتي لم يتناولها الشرع، فالأصل في الأشياء والأفعال الإباحة وليس التحريم ، وحسن الأفعال وقبحها عند محمد عبده قائم على النفع والضرر والخير والشر أي النفع الدائم والخيرية الدائمة والتي هي منوطة بالعقل وليس بالحواس.

فيرى محمد عبده أن " العقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه سعادته في هذه الحياة، اللهم إلا في قليل ممن لم يعرفهم الزمن، فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال" (١٦).

وهو يرى أن السعادة الحقة تكون بمعرفة الله حق المعرفة، وحسن العمل في الدنيا وفقاً للعقل والشرع للفوز بجنة الدار الآخرة، وأن العقول يجب أن

(١٦) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٧٥ - ٧٦.

تسترشد بالشرع حتى لا تضيعها وتفسدها التيارات الفكرية المادية والوثنية المحيطة بها.

واستطرد محمد عبده بقوله في سياق ما سبق الآتي:

" ليست عقول الناس سواء في معرفة الله تعالى، ولا في معرفة حياة بعد هذه الحياة، فهم وإن اتفقوا في الخضوع لقوة أسمى من قواهم، وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم، وانحرفت بها عن مسلك السعادة، فليس في سعة العقل الإنساني في الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يفهم، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه في تلك الدار الآخرة، وإنما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل، ونور البصيرة، وإن لم ينل شرف الاقتداء بهدي نبوي، ولو بلغه لكان أسرع إلى أتباعه، وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم إلى العرفان من وجه غير ما يليق في الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الإلهي" (٦٧).

وهكذا يتضح مما سبق أن الإمام محمد عبده لم يحزو حزو التحيز والتحزب للمذاهب والفرق إنما حاول الاستفادة من الإيجابي بكل منها بما يتناسب مع واقع الزمان والمكان والمصالح المرسله، ويحافظ على الدين والنفس والعقل والنسل، ففعل العقل في إطار النقل، وأعلا من قيمة الشرع والعقل.

(٦٧) محمد عبده- رسالة التوحيد- ص ٧٦.

بينما ذهب المعتزلة إلى أن الحكم على الفعل بالحسن والقبح إنما لوجوه عائدة على الفعل ، وليس لمجرد أمر الله به أو نهيه عنه، فالله أمر بالصدق لأنه حسن ونهي عن الكذب لأنه قبيح ، فالأفعال إنما توصف بالحسن أو القبح لصفات تخصها.. فالأمر والنهي دالان على حال الفعلين لا أنهما يوجبان إن حسن أحدهما وقبح الآخر^(٦٨) .

ومعرفة حسن الأفعال أو قبحها جملة عند المعتزلة كمعرفة حسن الصدق وقبح الكذب إنما يعلم ببداهة العقول، أما استنباط وجوه الحسن أو القبح في فعل معين فذلك يحتاج إلى تفكير واستدلال ، ومن ثم لا تختلف العقول في التمييز بين حسن الأفعال وقبحها على وجه الجملة كمعرفة قبح الظلم ولكنها تختلف في الحكم على الأفعال تفصيلاً، فيستحسن الخوارج قتل مخالفهم بينما تستقبح ذلك معظم فرق المسلمين^(٦٩) .

بينما ذهب الأشاعرة أن الأشياء ليس لها حسن ذاتي، ولا قبح ذاتي، وأن الأمور كلها إضافية ، وأن إرادة الله تعالى في الشرع مطلقة لا يقيدتها شيء، فهو خالق الأشياء و هو خالق الحسن والقبح، فأوامره هي التي تحسن وتقبح، ولا تكليف بالعقل، إنما التكليف بأوامر الشارع ونواهيه، ولا ثواب ولا عقاب إلا بمخالفة أوامر الشارع، ولا عبرة بأوامر العقل، إنما العبرة دائماً بأوامر الشارع الحكيم^(٧٠) .

(٦٨) القاضي عبد الجبار - شرح الأصول الخمسة - ص ٢٠٣ .

(٦٩) القاضي عبد الجبار - المغني في أبواب التوحيد والعدل - ج٦ - ص ٢٠ .

(٧٠) الشهرستاني - نهاية الإقدام في علم الكلام - ص ٢٥٣ ، وأنظر د . أحمد محمود صبحي في علم الكلام - ص ٢٥٣ .

أيضاً أشار محمد عبده أن هناك من الأعمال الحسنة ما لا يمكن الوقوف على النفع فيه في الحياة الدنيا وإنما يترتب على أثره النفع في الحياة الآخرة وهو ما يحتاج العقل فيه بالضرورة إلى الاسترشاد بالشرع والاهتداء به مثل ذلك يكون في بعض صور العبادات لعدد ركعات الصلاة وكذا بعض أعمال الحج في الدين الإسلامي " ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده، وهو تفصيل اللذائذ والآلام، وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما، ومن الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه، لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها، كصور العبادات، كما يرى في أعداد الركعات، وبعض الأعمال في الحج في الديانة الإسلامية، وكبعض الاحتفالات في الديانة الموسوية، وضروب التوسل والزهادة في الديانة العيسوية، كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه، ويعلم الله أن فيه سعادته^(٧١) .

ولما كان حسن الأفعال وإتقانها مطلب رئيس من مطالب الدين لأتباعه لما يترتب عليه من نفع في الحياة الدنيا والآخرة فقد أرسل الرسل والأنبياء ليكونوا بجانب هديهم إلى التوحيد وكيفية العبادة وعدم الشرك النموذج العملي الأمثل للحسن في الأفعال وفيما يجب أن تكون عليه الأفعال، وليبيان الضابط للأعلى والأدنى منها، ولتوضيح القبيح منها الذي يجب أن تتجنبه الأمة وأفرادها، وذلك ما نص عليه القرآن الكريم في الكثير من آياته حيث زكى الله تبارك

(٧١) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٧٦.

وتعالى رسول الله (ﷺ) فقال: " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا {٤٥} وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا " (٧١) .

وقال الله تعالى " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَتَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا " (٧٢) .

وقال الله تعالى : " وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ " (٧٣) .

وقال الله تعالى : " وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وَحْيٌ يُوحَى " (٧٤) .

وقال الله تعالى : " أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ " (٧٥) و " وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ " (٧٦) .

وما سبق ذكره ذهب إليه محمد عبده بقوله: " لهذا كله كان العقل الإنساني محتاجاً ، في قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له في الحياتين، إلى معين يستعين به في تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الألوهية ، ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة، ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من جنسه، ليفهم منه أو عنه ما يقول، وحتى يكون ممتازاً على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف في العادة وما عرف في سنة الخليقة، ويكون بذلك مبرهنًا على أنه يتكلم عن الله

(٧١) سورة الأحزاب الآية ٤٥ - ٤٦ .

(٧٢) سورة الأحزاب الآية ٢١ .

(٧٣) سورة القلم الآية ٤ .

(٧٤) سورة النجم الآية ٣ .

(٧٥) سورة الشرح الآية ١ .

(٧٦) سورة الشرح الآية ٤ .

الذى يعلم مصالح العباد على ما هي عليه، ويعلم صفاته الكمالية، وما ينبغي أن يعرف منها، والحياة الآخرة، وما أعد فيها، فيكون الفهم عنه، والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير، معينا للعقل على ضبط ما تشتت عليه أو درك ما ضعف عن أدراكي، وذلك المعين هو النبي" (٧٨).

وأشار محمد عبده إلى وجود الكثير من الأعمال التي لا يمكن درك حسنها أو قبحها وثانيها ولكنها تحسن وتقبح تبعاً للأمر بها أو النهي عنها حيث يتوقف حسنها وقبحها على الأوامر الشرعية حيث قال: " النبوة تحدد أنواع الأعمال التي تناط بها سعادة الإنسان في الدارين، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التي حددتها، وكثيراً ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه، فوجوب عمل من المأمور به، أو الندب إليه، وحظر عمل، أو كراهته من المنهي عنه على الوجه الذي حددته الشريعة، وعلي أنه مثاب عليه بأجر كذا، ومجازي عليه بعقوبة كذا، مما لا يستقل العقل بمعرفته، بل طريقة معرفته شرعية، وهو لا يناقئ أيضاً أن يكون المأمور به حسناً في ذاته، بمعنى أنه مما يؤدي إلى منفعة دنيوية أو أخروية، باعتبار أثره في أحوال المعيشة، أو في صحة البدن، أو حفظ النفس أو المال أو العرض، أو في زيادة تعلق القلب بالله، جل شأنه، كما هو مفصل في الأحكام الشرعية، وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حسنه، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه، وهذا النوع لا حسن له إلا الأمر ولا قبح إلا النهي" (٧٩).

(٧٨) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٧٦ - ٧٧.

(٧٩) المصدر السابق - ص ٧٨ - ٧٩.

الجمال في الطبيعة بين الحسي والعقلي

إن الجمال حقيقة ثابتة في كيان هذا الوجود، وهو قيمة من القيم العليا، وهو سمة بارزة في الصنعة الإلهية، وإن وجوده فيها مقصود لا عرضي، وإن من خصائصه العموم والشمول، وهو الذروة دائماً، إذ به تستكمل القضايا والأشياء، وإن الطبيعة ميدان من ميادينه، وإن وجوده فيما لا نبصر منها، كوجوده فيما نبصر.

ولقد كان لمحمد عبده موقفاً بارزاً تجاه الجمال الطبيعي قدم من خلاله رؤية جديدة جديرة بالوقوف أمامها للتمعن والتفحص والاستخلاص، فاعتبر الجمال الطبيعي هو مجلي للإبداع الإلهي، وأنه لما بلغت القوانين الضابطة للطبيعة حد الكمال والإتقان والإبداع فلا بد أن يكون خالقها أكثر كمالاً وأثبت برهاناً من المستدل بواسطته.

إن الطبيعة تتشكل وفقاً للإبداع الإلهي الذي يكيفها طبقاً لقوانينها الحاكمة لها والمؤثرة فيها، وهى سبيل يهتدي به الإنسان إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، وقد جعلها أثراً من أثاره التي يستدل بها على الخالق سبحانه وتعالى، والمستدل عليه لابد أن يكون أكثر كمالاً وأثبت برهاناً من المستدل بواسطته.

إن الجمال في هذا الكون مقصد رئيسي من مقاصد الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى حيث قال الله سبحانه وتعالى: "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ" (٨٠)، فقد

(٨٠) سورة السجدة - الآية ٧.

أتقن الله كل شيء خلقه، والإحسان هو بلوغ الغاية في أداء المهمة التي أعد لها ذلك الشيء، وهو في الوقت نفسه تأكيد على مراعاة جانب الحسن والجمال.

وذلك ما ذهب إليه محمد عبده حيث قال : " صنع الله الذي أتقن كل شيء، وأحسن خلقه، مشحون بضروب الحكم، ففيه ما قامت به السماوات والأرض وما بينهما، وحفظ به نظام الكون بأسره، وما صانه عن الفساد الذي يفضي به إلى العدم، وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حده، خصوصاً ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان، ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه " (٨١) .

والدليل على جمال الإنسان أن الله سبحانه وتعالى أحسن خلقه وأبدع في صنعه، ومما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى جعل العلم واكتسابه من قبل الإنسان مصدراً من مصادر الجمال ومظهراً من مظاهر الحسن له، فبه يكتسب العديد من المواهب والحكم، وبه يرتقي حاله ويضبط إيقاع حياته ويحسن مظهره ومعاشه وصحته ، ويصح فكره.

فيرى محمد عبده أنه " لا ريب أن الذي أحسن كل شيء خلقه، وأبدع في كل كائن صنعه ، وجاد على كل حي بما إليه حاجته، ولم يحرم من رحمته حقيراً ولا جليلاً من خلقه، يكون من رافقه بالنوع الذي أجاد صنعه، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التي أختص بها غيره " (٨٢) .

(٨١) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٥٧ - ٥٨.

(٨٢) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٨٩.

إن كل شيء حيثما امتد البصر متقن الصنع، بديع التكوين، يتجلى فيه الإحكام والإتقان، وإذا كان الأمر متعلقاً بصناعة الله تعالى فالإتقان هنا وصف للجمال ، وكل إتقان للحق سبحانه وتعالى لابد أن يكون جمالاً .

وذلك ما ذهب إليه محمد عبده حيث قال: " من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده في نظام الممكنات من الإحكام والإتقان ووضع كل شيء في موضعه ، وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه في وجوده وبقائه ، وذلك ظاهر لجلي النظر مما يشاهد في الأعيان، كبيرها وصغيرها، علويها وسفليها ، هذه الروابط بين الكواكب ، والنسب الثابتة بينها، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذي قدر لها، وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره، وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية، كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره" (٨٣) .

كلا بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء (٨٤) .

إن الحسن مقصود في هذا الخلق الذي أوجده الله تعالى، ولا غرو في ذلك ، فإن الصناعة تدل على الصانع... وصناعة الله تعالى لابد أن تكون تعبيراً عن الكمال الذي ستر بالجمال.. وليس هذا من باب الصدفة فلا صدفة في هذا الوجود والدليل على ذلك قول الله تعالى: " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ " (٨٥) .

(٨٣) المصدر السابق - ص ٤٣ .

(٨٤) المصدر السابق - ص ٤٤ .

(٨٥) سورة القمر الآية ٤٩ .

وذلك ما وضحه محمد عبده بقوله: " ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى إنما تقرر له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذي هو أكمل الوجودات وأرفعها، فالكمال في الكون إنما هو تابع لكمال المكوّن ، وإتقان الإبداع إنما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع، وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظم تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة ، فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع " أفحسيتُمْ أئِمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَّاءً وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ" ^(٨٦) ، وهذا هو معنى قولهم : إن أفعاله لَا يُعَلَّل بِالْأَغْرَاضِ ولكنها تنزهه عن العبث ، ويستحيل أن تخلو من الحكم ، وإن خفي شيء من حكمتها عن أنظارنا " ^(٨٧) .

ويدعو محمد عبده إلى التفكير والتدبر في نظام خلق الكون والطبيعة وهيتهما كمجلى للإبداع الإلهي وكأثر من أثار رحمة الله وجمال إبداعاته وخلقها، وكدليل وبرهان على وجود الله وكماله وعلوه سبحانه ، حيث قال: " النظر في الخلق يهدي بالضرورة إلى المنافع الدنيوية، ويضئ للنفس طريقها إلى معرفة من هذه أثاره وعليها تجلت أنواره، وإلى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هي عليه من النظام" ^(٨٨) .

ويعلل محمد عبده تخالف الأنظار في الكون بوجود تصارع بين الحق والباطل، ولا بد أن يظفر الحق ويعلو الباطل بتعاون الأفكار، أو صولة القوى منها على الضعيف ^(٨٩) .

^(٨٦) سورة المؤمنون الآية ١١٥.

^(٨٧) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٤٦.

^(٨٨) محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٥٢.

^(٨٩) المصدر السابق - ص ٥٢.

ويرى محمد عبده أن القرآن الكريم والكتب السماوية من قبله كان هدفهم توجيه النظر إلى المخلوقات والمصنوعات حتى ينفذ إلى معرفة وجود الصانع والخالق وما يتصف به من صفات كمالية وجمالية، ولتوجيه الفكر إلى حكمته المبدعة، ولإدراك أسرارهِ وبدائعه، فقال: "ولهذا لم يأت الكتاب العزيز، وما سبقه من الكتب، إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفه وجود الصانع وصفاته الكمالية.^(٩٠) أما ما ورد في كلام الأنبياء من الإشارة إلى شيء... في أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض، فإنما يقصد منه النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه، أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسرارهِ وبدائعه"^(٩١).

ويذهب سيد قطب مذهب الإمام محمد عبده في ضرورة إمعان النظر والتدبر في نظام الكون والطبيعة وهيئتهما كمجلى للإبداع الإلهي وكبرهان على وجود الخالق وعظمته، حيث قال:

"والعين المفتوحة والحس المتوفر والقلب البصير، ترى الحسن والإحسان في هذا الوجود بتجمعه، وتراه في كل أجزائه وأفراده، والتأمل في خلق الله حيثما اتجه النظر أو القلب أو الذهن، يمنح الإنسان رصيذاً ضخماً من ذخائر الحسن والجمال ومن إيقاعات التناسق والكمال، تجمع السعادة من أطرافها بأحلى ما في ثمارها من مذاق وتسكبها في القلب البشري، وهو يعيش في هذا

(٩٠) المصدر السابق - نفس الصفحة.

(٩١) المصدر السابق - ص ١١٢.

المهرجان الإلهي الجميل البديع المتقن يتملى آيات الإحسان والإتقان في كل ما يراه وما يسمعه وما يدركه في رحلته على هذا الكوكب، ويتصل من وراء أشكال هذا العالم الفانية بالجمال الباقي المنبثق من جمال الصنعة الإلهية الأصلية^(٩٢).

وقد ترددت أصدااء ذلك عند التوحيدي حيث اعتبر الطبيعة مجلي للإبداع الإلهي، فهي حسنة من حسنات الله على خلقه وأثر من أثار نعمه على عباده، فالطبيعة عند التوحيدي قوة إلهية سارية في الأشياء وأصلة إليها، عاملة فيها بقدر ما للأشياء من القبول والاستحالة والانفعال والمواتاة إما على التمام وإما على النقصان^(٩٣).

وقد تردد أصدااء ذلك في الفكر الغربي الحديث والمعاصر أيضاً فقد اختلف الفلاسفة وعلماء الجمال والفنانين في موقفهم من جمال الطبيعة فذهب بعضهم إلى أن الطبيعة جميلة بكل ما فيها، بل هي نموذج الجمال وأصله، وهي مقياسه ومعياره، إنها تجسيد للروعة والكمال.

فيرى ليبنتز (١٦٤٦/١٧١٦م)^(٩٤) أن الكون يبدو سلماً من الأحياء الشاعرة تؤلف كلا واحداً منسجماً تاماً فيما بينه، في الجبال والسهول والبحار

(٩٢) سيد قطب - في ظلال القرآن.

(٩٣) أبو حيان التوحيدي - الإمتاع والمؤانسة - ج ٢ - ص ٣٩.

(٩٤) ليبنتز فيلسوف ألماني وهو أحد الرواد من باحثي علم الجمال المثاليين الكلاسيكيين، وكان له أثر كبير على بومجارتن الذي يعتبر منشئ علم الجمال، بواسطة تلميذ ليبنتز (الأب اندريه).

والنجوم التي تتصل بعضها ببعض وبسائر الكائنات الحية، من نبات وحيوان وإنسان ، هذا الانسجام الذي يتحقق في الكون يجعل العالم الذي نعيش فيه أحسن العوالم الممكنة..^(٩٥) .

ويري رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢م) إننا لا نجد في الطبيعة بأسرها أدنى خطأ في الرسم ، ويقول: " إن العالم جميل إلى أن تمسه يد الإنسان"^(٩٦) .

ومن قبله قال ديدرو^(٩٧) (١٧١٢ - ١٧٨٤م) : " ليس بين الكائنات جميعاً موجود واحد يمكن أن يقال عنه إنه ليس على ما يرام أو إنه ليس كما ينبغي أن يكون "^(٩٨) .

ويري بومبارتن (١٧١٤ - ١٧٦٢ م) أن الكون أفضل العوالم الممكنة بحالته الطبيعية، فهو يمثل أسماً تجسيد للكمال وهو من صنع الله، ونموذج لكل ما يمكن اعتباره رائعا^(٩٩) .

وإذا كانت الطبيعة هي النموذج ، فذلك يعني أنها هي المقياس الذي يقاس به الجمال، وذلك ما ذهب إليه وليم هوجارث (١٦٩٧ - ١٧٦٤م) حيث رأى أن " الطبيعة هي المعيار الذي نقيس به الجمال وهي الأصل الذي يجب أن تضاهى به سائر الأعمال الفنية"، وينبه هوجارث إلى خطأ النظرة الفنية التي

^(٩٥) عبد الرؤوف براجوي- فصول في علم الجمال- ص ٣٠٩، وانظر : د. محمد على أبو ريان- فلسفة الجمال - ص ٢٥.

^(٩٦) د. زكريا إبراهيم - مشكلة الفن - ص ٥١.

^(٩٧) دنيس ديدرو : هو موسوعي فرنسي، وفيلسوف مادي وناقد أدبي وفني.

^(٩٨) د. زكريا إبراهيم - مشكلة الفن - ص ٥١.

^(٩٩) عبد الرؤوف براجوى - فصول في علم الجمال - ص ٣١٣.

تفصل بين العمل الفني والطبيعة فتقوم الآثار الفنية في ذاتها و لذاتها بمعزل عن الطبيعة وهى المصدر الحي للقيمة الجمالية فيتعين علينا أن نتجه أولاً إلى العالم الخارجي أي إلى الطبيعة^(١٠٠) .

وتساهم الواقعية في تدعيم هذا الاتجاه، ويتضح ذلك في قول المصور الفرنسي كوربيه (١٨١٩-١٨٧٧م): "والواقع أن الجمال كائن في الطبيعة، ونحن نلتقي في عالم الواقع على أشكال عديدة متنوعة"^(١٠١) .

وهناك اتجاه آخر يتفق مع الاتجاه الأول بأن الطبيعة جميلة، وأن الفن إن هو إلا محاكاة لها، ولكن هذه المحاكاة في نظره يجب أن تتجاوز الظاهر لتصل إلى الباطن ويتم ذلك بإمعان النظر والتفحص والتأمل والتفكير.

وممن سار في هذا الاتجاه المثال الفرنسي أوغست رودان (١٨٤٠-١٩١٧م) الذى دعا إلى السعي وراء الحقيقة الباطنة إذ هي الفن الحقيقي فينصح الفنانين بقوله " لتكن الطبيعة منارتكم، الوحيدة ، ولتكن تقتكم فيها مطلقة، إن كل ما في الوجود جميل في عيني الفنان، لأن بصره النقّاذ يستشف في كل موجود وفى كل شيء ما فيه من شخصية ، أعني تلك الحقيقة الباطنة التي تتبدى من وراء الصورة، وهذه الحقيقة إنما هي الجمال بعينه ... كونوا دائماً صادقين ولكن هذا لا يعنى أن تتوخوا الدقة الباردة.. دقة الصورة الفوتوغرافية والصب، أما الفن الحقيقي فإنه لا يبدأ إلا بالحقيقة الباطنة، فلتكن إذن كل صوركم وكل ألوانكم معبرة عن عواطف"^(١٠٢) .

(١٠٠) د. محمد على أبو ريان - فلسفة الجمال - ص ٢٧.

(١٠١) د. زكريا إبراهيم - مشكلة الفن - ص ٥٢ ، ٥٣.

(١٠٢) المرجع السابق - ص ٥٨.

ومن هنا هذا المنحى الفيلسوف الأسباني جورج سانتنيانا (١٨٦٣-١٩٥٢م) الذي رأى أن التصور الجمالي للعالم لا يكون إلا بإمعان النظر إلى الطبيعة حيث يقول " لو أمعنا النظر إلى الطبيعة لوجدنا أنها حافلة بالنماذج العضوية المنتظمة والعناصر المتناسكة المتسقة مما يبرر القول بأن هناك أشكالاً محددة تتكرر على مرأى من إدراكنا الحسي العادي، فتكون بمثابة الأسس التي نستطيع بالاستناد إليها أن نتصور العالم تصوراً جمالياً" (١٠٣).

ويتفق الفيلسوف الفرنسي آلان (١٨٦٨- ١٩٥١ م) مع سانتنيانا، إلا أنه قد سلك أسلوباً آخر، فهو لا يقبل أن تكون مهمة الفنان محاكاة الطبيعة محاكاة ظاهرة، وإنما يريد منه أن يتأمل الطبيعة ويدرس نظامها ويعرف أشكالها بغية الوصول إلى تنظيم لها، والاهتداء إلى علاقات جمالية جديدة، إنه يريد منه بروحه القوية أن يدفع الطبيعة إلى البوح بأسرارها.. ويسعى دائماً في سبيل تحديد أفكاره إلى الاحتكاك المستمر بالواقع (١٠٤).

الفن في فكر الإمام محمد عبده

لم تذكر كلمة الفن صراحة في القرآن الكريم، ذلك لأن العرب كانوا يعتبرون كل فن صناعة، وذلك ما أشار إليه أبو هلال العسكري بتسميته لكتابه في الكتابة والشعر باسم (كتاب الصناعتين) مما يوحي إلى أن مجموع الفنون البشرية علي اختلاف ألوانها ضرباً من الصناعات عند العرب، لذا فقد تناول

(١٠٣) د. زكريا إبراهيم - فلسفة الفن - ص ٨٤.

(١٠٤) د. زكريا إبراهيم - فلسفة الفن - ص ١٣٨ - ١٣٩.

القرآن الكريم تلك الفنون بتمام مسماها تارة، وكذا بلفظة صناعة تارة أخرى كناية عن تلك الفنون.

وعندما شرعت مدرسة التجديد والإحياء الديني تزيل عن الفكر الإسلامي غبار عصور الجمود والتراجع الحضاري- المملوكية العثمانية وجدنا من أبرز رواد ذلك التجديد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده باجتهاده وتجديده، الذي أعلن مباركة الإسلام للفنون الجميلة والتطبيقية، منبهاً علي دور فنون التشكيل (رسماً ونحتاً وتصويراً) النافع والضروري في تسجيل معالم الحياة وحفظها، وفي ترقية الأذواق والحواس والاقتراب بالإنسان من صفات الكمال.

ولقد عرض الإمام لهذه القضية - قضية دور الفنون التشكيلية في حياة الأمة - أثناء سياحته في جزيرة (صقلية) سنة ١٩٠٣م ، ففي (صقلية) زار المتاحف والمقابر ومواطن الآثار التي تحفظ وتحكي بالصور والتماثيل آثار الغابرين، وكأنها من سجلات التاريخ . حيث قال:

" يوجد في دور الآثار عند الأمم الكبرى ما لا يوجد عند الأمم الصغرى من الرسوم والنقوش، يحققون تاريخ رسمها واليد التي رسمتها، ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب، حتى أن القطعة الواحدة من رسم روفانييل مثلاً، ربما تساوي مائتين من الآلاف في بعض المتاحف، ولا يهتمك معرفة القيمة بالتحقيق، وإنما المهم هو التنافس في اقتناء الأمم لهذه النقوش، وعدُّ ما أتقن منها من أفضل ما ترك المتقدم للمتأخر، وكذلك الحال في التماثيل، وكلما قدم

المتروك من ذلك، كان أعلي قيمة وكان القوم عليه أشد حرصاً..... وهل تدري لماذا؟^(١٠٥).

والذين يتأملون الصفحات التي كتبها الإمام محمد عبده حول هذه القضية لطالعم الشيخ ذواقة للفن، عاشقاً للإبداع الفني، مبصراً الخيوط التي تربطه بفنون الإسلام المألوفة لعامة الناس، الأمر الذي يضيف إلي تجديده في الدين والأدب واللغة وأساليب الإنشاء قسمة أخرى تجعل له فضلاً لا ينكر في السعي لتجديد حياة الأمة بمختلف سبل الشعر- الذي هو ديوان الأمة العربية منذ القدم.

وقد قال الإمام محمد عبده بصدد ذلك: "إذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر في دواوينه والمبالغة في تحريره، خصوصاً شعر الجاهلية، وما عني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه، أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم علي هذه المصنوعات من الرسوم والتمائيل- فإن الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع، والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى"^(١٠٦).

وجدير بالذكر أن السبب هو إبراز وجوه الإعجاز البياني واللغوي للقرآن الكريم وما فيه من تحدى لمعجزة الأمة وبيانها عند السابقين واللاحقين. وكذلك

^(١٠٥) د. محمد عمارة- الأعمال الكاملة لمحمد عبده- ج٢ ص ٢٠٤ ، وأيضاً انظر: أبو صالح الألفي - الفن الإسلامي- ص ٧٩، ٨٠ وقد ورد نص هذه الفتوى في كتاب أحمد يوسف - الفنون الجميلة قديمها وحديثها ص ٢٤٧.

^(١٠٦) د. محمد عمارة - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - ج٢ ص ٢٠٤ ، وانظر أيضاً: أبو صالح الألفي - الفن الإسلامي - ص ٨٠.

معرفة البيئة والمجتمع التي أحاطت بمجتمع نزول الرسالة، والوقوف على المعاني الدقيقة للكلمات والآيات.

لقد جاء الإسلام لمحو الوثنية عربية كانت أو يونانية أو رومانية، أو غيرها، في أي لباس وجدت، وفي أية صورة ظهرت، وتحت أي اسم عرفت، ولكن كتابه عربي والعربية لغة أولئك الوثنيين أعدائه الأقربين، وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ولا تعرف أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كلمه وأساليبه، ولن يكون ذلك إلا بحفظ ما نطق به العرب من منظوم ومنثور، وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند الناظر في كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم، وما فيها من الوثنية وأطوارها. هكذا صنع المسلمون الأولون- ركبوا الأسفار، وأنفقوا الأعمار - وبذلوا الدرهم والدينار، في جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره، توسلا بذلك إلى فهم كتابهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضرباً من ضروب العبادة، يرجون من الله فيه حسن المثوبة، فكان من طبيعة الدين ألا يحتقر العلم الذي ولد هو فيه، بل قد يكون من الدين علم ما ليس منه متى حسنت النية في تناوله وهذا باب من التسامح لا يقدر سعته إلا أهل العلم به^(١٠٦).

ومما لا شك فيه أن التصاوير والمنحوتات الفنية تعد توثيقاً تاريخياً للأحوال الشخصية والمدنية للمجتمعات على مدار التاريخ مما يساعد علي فهم الأحوال والأحداث ويعد مصدر من مصادر الاتصال والتواصل بين الماضي

(١٠٦) محمد عبده- الإسلام دين العلم والمدنية - ص ١٣٢-١٣٣.

والحاضر، وكذلك مصدراً من مصادر المعرفة التي يفسر ويفهم بها التاريخ، وذلك بجانب أن الفن ينقل العواطف الكامنة في النفس ويفصح عنها بشكل فصيح جذاب، فهو يعبر عن العالم الداخلي للإنسان المبدع، وليس فقط عن العالم الخارجي وعن آثار الإنسان والزمان، وله من القدرات الهائلة التي تعين الكثير من الناس علي فهم المعاني بدقة ووضوح فهو وسيلة من الوسائل التعليمية المؤثرة في عموم الجماهير حيث قال محمد عبده:

"إن هذه الرسوم حفظت من أحوال الأشخاص في الشئون المختلفة ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية. يصورون الإنسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا والطمأنينة والتسليم. وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ المتقاربة ولا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض. ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق طاهراً باهراً، يصورنه مثلاً في حال الجزع والفرع والخوف والخشية والجزع والفرع مختلفان في المعنى، ولم أجمعهما ههنا طمعاً في جمع عينين في سطر واحد، بل لأنهما مختلفان حقيقة. ولكنك ربما يقتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفرع؟ ومتى يكون الجزع؟ وما الهيئة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك؟" (١٠٨).

(١٠٨) محمد عمارة - الأعمال الكاملة لمحمد عبده - ج ٢ ص ٢٠٥، وأنظر أيضاً: أبو صالح الألفي - الفن الإسلامي - ص ٨٠-٨١.

وقد اتفق رأي محمد عبده مع رأي التوحيدي في أن الفن ينقل العواطف الكامنة في النفس ، ويعبر عن العالم الداخلي للإنسان المبدع، وليس فقط عن العالم الخارجي حيث قال التوحيدي :

" القلم أصم، ولكنه يسمع النجوى، وأبكم ولكنه يفصح عن الفحوص، وهو أعمى من باقل، ولكنه أفصح وأبلغ من سحبان وائل، يترجم عن الشاهد، ويخبر عن الغائب"(١٠٩) .

وكذلك قال التوحيدي : (القلم لسان البصير يناجيه بما استتر من الأسماع ويناغيه بما استثار من الطباع، ويحدثه بما حدث وإن كان في البقاع)(١١٠) .

ويتفق ما ذهب إليه محمد عبده من أن الفن وسيلة اتصال وتواصل مع ما قرره التوحيدي بقوله : "خط القلم يقرأ بكل مكان وفي كل زمان، ويترجم بكل لسان، ولفظ اللسان لا يجاوز الآذان ولا يعم الناس بالبيان، ولولا الكتاب (أي الفنانين الخطاطين) لاختلف أخبار الماضيين وانقطعت أنباء الغابرين"(١١١) .

وذلك ما ذهب إليه تولستوي (L.Tolstoi) (١٨٢٨ - ١٩١٠م) بوصفه الفن مظهراً من مظاهر الحياة البشرية، وأن الفن هو إحدى وسائل الاتصال بين الناس، وكما أن الإنسان ينقل أفكاره إلى الآخرين عن طريق (الكلام) فإنه ينقل إلى الآخرين عواطفه عن طريق (الفن)، ومعني هذا أن الفن لا يخرج

(١٠٩) أبو حيان التوحيدي - الرسائل (رسالة علم الكتابة) - ص ٣٨.

(١١٠) المصدر السابق - نفس الصفحة.

(١١١) المصدر السابق - ص ٣٩.

عن كونه أداة تواصل بين الأفراد، يتحقق عن طريقها ضرب من الاتحاد العاطفي أو التناغم الوجداني فيما بينهم^(١١٢).

أيضاً قال محمد عبده "أما إذا نظرت إلي الرسم، وهو ذلك الشعر الساكت، فإنك تجد الحقيقة بادره لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك"^(١١٣).

ثم يعرض محمد عبده للحديث عن منافع هذه الفنون ودورها في حفظ تراث الأمة على مر الأزمنة، وما يعنيه ذلك من حفظ للعلم والحقيقة والتاريخ وتحقيق للتواصل والاتصال بين السابقين واللاحقين، وكفي تظل شاهدة فاعلة لمن يأتي من أجيال. "إذا نزعنا نفسك إلي تحقيق الاستعارة المصروفة في قولك: رأيت أسداً: تريد رجلاً شجاعاً فانظر إلى صورة أبي الهول بجانب الهرم الكبير، تجد الأسد رجلاً والرجل أسداً. فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة، وشكر لصاحب الصنعة علي الإبداع فيها"^(١١٤).

ثم يعرض الإمام محمد عبده للقضية الشائكة والخلافية، قضية موقف الإسلام من هذه الفنون وأصحابها، فيدلي بالقول الفصل في فائدتها- ومن ثم حلها- وذلك لتغير الملابس والمقاصد التي دعت إلى نفور المسلمين منها في عصر البعثة النبوية، يوم كانت الرسوم والصور والتمائيل إنما تتخذ كي تعبد من دون الله، أو على الأقل كانت مظنة شبهة، لتعظيمها دينياً، فكان أن نهى

^(١١٢) د. زكريا إبراهيم - مشكلة الفن ص ١٤.

^(١١٣) المرجع السابق - نفس الصفحة.

^(١١٤) د. محمد عمارة - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ٢ - ص ٢٠٥، وأنظر أيضاً:

أبو صالح الألفي- الفن الإسلامي ص ٨١.

عنها الرسول (ﷺ) أما الآن وبعد زوال هذا الخطر بالكلية، وبعد أن لم تعد الرسوم والتماثيل مظنة شبهة العبادة أو التعظيم الديني، وبعد أن وضحت وتأكدت منافعها في ترقية أذواق الأمة، وحفظ حقائق تاريخها وعلومها، فإن رضاء الإسلام ومباركته لها، أمر لا شك فيه^(١١٥).

والأستاذ الإمام عندما صاغ اجتهاده هذا واطر لنا تجديده في هذا الميدان كان يوجه حديثه إلى الناس عبر الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ / ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م) صاحب مجلة (المنار) وكانت (المنار)^(١١٦) تنشر هذه الفصول التي يصف فيها مشاهد سياحته دون توقيع... وكان يتولي يومئذ منصب (مفتي الديار المصرية) ويتربع علي عرش الإمامة والاجتهاد في طول بلاد العالم الإسلامي وعرضها، وفي هذه الفصول أخذ الشيخ محمد عبده يتحدث إلي الشيخ رشيد رضا عن هذه القضية، فقال بعد وصفه لما شاهد من الرسوم والتماثيل في متاحف (صقلية) وأديرتها وكنائسها ومقابرها وميادين مدنها، وبعد حديثه عن دور هذه الرسوم والصور والتماثيل في (حفظ العلم) وتخليده^(١١٧) قال:

" ربما تعرض لك مسألة وهي ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هينات البشر في انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجثمانية..... هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب؟

^(١١٥) محمد عمارة - الإسلام والفنون الجميلة - ص ١٣٧.

^(١١٦) (نشرت آراء محمد عبده في مجلة المنار).

^(١١٧) د. محمد عمارة - الإسلام والفنون الجميلة - ص ١٣٨.

..... فأقول لك: إن الرسم قد رسم، والفائدة محققة لا نزاع فيها، ومعنى العبادة وتعظيم الصورة أو التماثيل، قد محي من الأذهان - فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة، وأما أن ترفع سؤالا إلي المفتي وهو يجيبك مشافهة، فإذا أوردت حديث: "إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون" (١١٨) أو ما في معناه مما ورد في الصحيح، فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك، إن الحديث جاء في أيام الوثنية، وكنت الصور تتخذ في ذلك العهد لمسيبين: الأول: اللهو، والثاني: التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين - والأول مما يبغضه الدين، والثاني مما جاء الإسلام لمحوه - والمصور في الحاليين مشغول عن الله أو مهمل للإشراك به - فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات، وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور، ولم يمنعه أحد من العلماء، ومع أن الفائدة في نقش المصاحف موضع نزاع، أما فائدة الصور، فمما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر (١١٩).

والمقصود من ذلك أنه إذا كان الفن بعيداً عن اللهو والعبث وكذلك الشرك بالله وله أثر في المنفعة والفائدة كان مباحاً، وأما تحريمه فيتوقف على ما يؤديه الفن من ضرر، فالتصوير والنحت المستخدمان في العمارة الحضارية

(١١٨) يشير الأستاذ الإمام إلى حديث "لا تدخل الملائكة بيتا فيه جنب ولا صورة ولا كلب".

رواه أبو داود والنسائي والدرامي والإمام أحمد.

(١١٩) د. محمد عمارة - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - ج ٢ - ص ٢٠٥، وانظر أيضاً:

أبو صالح الألفي - الفن الإسلامي - ص ٨٢.

وفي التشييد والعمران يساهمان في تنظيم المدن وفي تنسيقها ومساعدة الأفراد على المعرفة والارتقاء بأذواقهم وأمزجتهم الحياتية مما يعين على نمو وارتقاء الحياة ويقلل من صعوباتها ويضفي على الحياة ضرباً من ضروب البهجة.

وقد اتفق كل من الشيخ محمد رشيد رضا والشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الأسبق مع محمد عبده في أن الفن البعيد عن اللهو والعبث والشرك بالله وله أثر في المنفعة والفائدة كان مباحاً ، حيث ذهب محمد رشيد رضا فيما يتعلق بأمر الصور وحلتها وحرمتها :

" أن علة ما ورد من الأحاديث أمر ديني محض يتعلق بصيانة العقيدة في لوازم الشرك وشعائره ، إذ لم يكن يعهد في صدر الإسلام وقبله اتخاذ العرب للصور والتماثيل إلا للعبادة، كالذي كان من ذلك على الكعبة الشريفة، فازاله النبي ﷺ يوم الفتح. فعلى هذا يحرم ما كان فيه قصد التعظيم الديني وما كان شعاراً دينياً للكفار إذا قصد به التشبه بهم، أو كان بحيث يظن أنه منهم. أو يذكر بعبادتهم وشعائره، فمقصد الإسلام إزالة الشرك وشعائره والتشبه بأهله فيما كان عبادة دون موافقتهم فيما حسن من عادة، ومن يقول إن علة تحريم التصوير واتخاذ الصور هو محاكاة خلق الله تعالى يلزمه تحريم تصوير الشجر والجبال والأنهار والأرض والشمس والقمر والنجوم والآلات والأدوات والدوائر والخطوط... الخ" ولم يحرموه وكلها من خلق الله، وما أستدل به على ذلك لا يدل عليه ، بل معناه أن الله تعالى يظهر للمصورين عجزهم يوم القيامة تمهيداً لعقابهم علي مساعدة الناس بتصاويرهم على عبادة غيره. وللتصوير

منافع في هذا الزمان كثيرة... فالتصوير ركن من أركان الحضارة ترتقي به العلوم والفنون والصناعات والسياسة والإدارة فلا يمكن لأمة تتركه أن تجاري الأمة التي تستعمله^(١٢٠).

بينما أشار أبو صالح الألفي في كتابه " الفن الإسلامي " أن الشيخ محمود شلتوت في زيارته لمعرض فني في الرسم والتصوير لطلاب الأزهر كتب مقدمة شهد فيها بجماليات ما في المعرض من رسم وتصوير، وزكي دورها في إبراز آيات الجلال والجمال، وأعلى أثرها على تحفيز العقول للبناء والتعمير^(١٢١).

ويتضح من رأي محمد عبده أنه ربط بين الجمال الفني والمنفعة الحياتية بجانب المتعة والبهجة وذلك ما أيده جون ديوي (John Dewey) (١٨٥٩ - ١٩٥٢م) بعدم الفصل بين (الجميل) و(النافع) بل هو يقرر أن الحياة الحضارية التي يصدر عنها الواحد منهما والآخر، هي التي تتكفل بإظهارنا على مابين الفنون الجميلة والفنون النفعية من علاقة وثيقة .. وهكذا نرى أن ديوي ينادي بفكرة تداخل الفنون الجميلة والفنون النافعة، فلا يكاد يفصل الفن عن الصناعة^(١٢٢).

ويستطرد محمد عبده قائلاً: " وأما إذا أردت أن ترتكب بعض السيئات في محل فيه صور طمعاً في أن الملكين الكاتبين أو كاتب السيئات على الأقل لا

^(١٢٠) محمد رشيد رضا - مجلة المنار - عدد ٣٠ ذو الحجة سنة ١٣٣٠ هجرية.

^(١٢١) أبو صالح الألفي - الفن الإسلامي - ص ٨٥.

^(١٢٢) د. زكريا إبراهيم - مشكلة الفن - ص ١٦٩.

يدخل محل فيه صور كما وردت في حديث "إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة" (١٢٣) فإياك أن تظن أن ذلك يجنبك من إحصاء ما تفعل ، فإن الله رقيب عليك وناظر إليك ، وحتى في البيت الذي فيه صور ، ولا أظن الملك يتأخر عن مرافقتك إذا تعمدت دخول البيت لأن فيه صور ، ولا يمكنك أن تجيب المفتى بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فإني أظنه يقول لك إن لسانك أيضاً مظنة الكذب ، فهل يجب ربطه مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب" (١٢٤) .

ويعقب محمد عبده على ما سبق أنه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين، لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل، على أن المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها وإلا فما بالهم لا يتساءلون عند زيارة القبور والأولياء أو ما سماهم بعض بالأولياء وهم ممن لا نعرف لهم سيرة ولا يطلع لهم أحد على سريرة، ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع، وهم يخشونها كخشية الله أو أشد ، ويطلبون منها ما يخشون ألا يجيبهم الله فيه، ويظنون أنهم أسرع إلى إجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى، ولا شك أنهم لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد ولكن يمكنهم الجمع بين عقيدة

(١٢٣) يشير الأستاذ الإمام إلى حديث " لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جنب ولا صورة ولا كلب".

(١٢٤) د. محمد عمارة - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - ج ٢ - ص ٢٠٥ ، وانظر

أيضاً: أبو صالح الألفي - الفن الإسلامي ص ٨٢ .

التوحيد ورسم صورة الإنسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية وتمثيل الصور الذهنية^(١٢٥).

هكذا صاغ الأستاذ الأمام في الفنون التشكيلية ما يشبه الفتوى الشرعية فقرر أنها أداة لحفظ الحقيقة العلمية والتاريخية بل وسيلة من أفضل الوسائل التعليمية، وأنها فنون راقية ترقى بذوق الإنسان كما يرقى به فن الشعر وغيره من الفنون التي ليس على الإبداع فيها كلام ولا ملام في الإسلام.

وهناك علاقة وثيقة بين الفن والعلم، فالعلم والفن يحتاج كل منهما إلى الآخر فبالعلم تتعمق وتتجدد موضوعات الفن وتطور أدواته وخاماته، وتتعدد ميادينه، والفن كنشاط صناعي يقوم على البناء والتركيب تتطور أدوات العلم فتزداد دقته ويزداد تقرباً إلى الحقائق وذلك بجانب الخيال الفني والعلمي الذي يثرى كل منهما الآخر.

وذلك بالإضافة إلى ما أشار إليه التوحيدي حيث قال:

" ألا تعلم أن أعمال الدواوين التي ينفرد أصحابها فيها بعمل الحساب فقيرة إلى إنشاء الكتب في فنون ما يصفونه ويتعاطونه، بل لا سبيل إلى العمل إلا بعد مقدمة هذه الكتب التي مدارها على الإفهام البليغ والبيان المكشوف والاحتجاج الواضح، وذلك يوجد من الكاتب المنشي"^(١٢٦).

^(١٢٥) محمد عمارة - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - ج ٢ - ص ٢٠٥ - ٢٠٦ وانظر

أيضاً: أبو صالح الألفي - الفن الإسلامي - ص ٨٢-٨٣.

^(١٢٦) أبو حيان التوحيدي - الإمتاع والمؤانسة - ج ١ ص ٩٨.

فالفن البعيد عن الشرك واللهو والعبث كالعلم إذا ، ليس بدون رسالة ،
وليس هو هنر وعبث ، بل هو نتيجة تضافر الروح والنفس في عمل
منسجم شريف .

وإذا بحثنا عن الأصل الاشتقاقي لكلمة الفن (Techne) باليونانية ،
(Ars) باللاتينية سنجد أنها لم تكن تعنى سوى (النشاط الصناعي النافع
بصفة عامة) ، فلم يكن لفظ (الفن) عند اليونانيين قاصراً على الشعر والنحت
والموسيقى والغناء وغيرها من الفنون الجميلة ، بل كان يشمل أيضاً كثيراً من
الصناعات المهنية كالنجارة والحدادة والبناء وغيرها من مظاهر الإنتاج
الصناعي ، ولاشك أن الفن بهذا المعنى إنما يشير إلى القدرة البشرية بصفة
عامة مادام الإنسان هو ذلك الموجود الصانع الذي يستحدث موضوعات ،
ولعل هذا هو السبب في أن الفلاسفة قد وضعوا الفن منذ البداية في مقابل
الطبيعة ويضطروا إلى التلاؤم إنما يحاول عن طريق الفن أن يستخدم الطبيعة
ويضطروا إلى التلاؤم مع حاجته ، ويلزمها بالتكيف مع أغراضه .

والظاهر أن العرب أيضاً قد فهموا (الفن) بهذا المعنى بدليل أنهم قد فرقوا
بين الطبيعة والصناعة ، وكان العرب يستعملون كلمة (الصناعة) للإشارة إلى
الفن عموماً ، كما يظهر من تسمية أبي هلال العسكري لكتابه في الكتابة
والشعر باسم (كتاب الصناعتين) (١٢٧) .

(١٢٧) د. زكريا إبراهيم - مشكلة الفن - ص ٨ - ٩ .

وقد استعملها القلقشندي في عنوان كتابه المشهور (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) .. وقد جاء في هذا الكتاب في صدد الحديث عن صناعة الأدب: " والمؤلفون في هذه الصناعة قد اختلفت مقاصدهم في التصنيف.." (١٢٨).

كما جاء قوله " " والكتابة إحدى الصنائع فلا بد فيها من أمور... " (١٢٩).

وجاء في كتاب " نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري، قوله: " وكنت ممن جعل صناعة الكتابة فنه الذي يستظل بوارفه.." (١٣٠).

وفي صدد الحديث عن الألحان جاء في كتاب " العقد الفريد" قوله: " وكرهنا أن يكون كتابنا هذا بعد اشتماله على فنون الآداب والحكم والنوادر والأمثال عطلاً من هذه الصناعة التي هي مراد النفس " (١٣١).

وقد أكد ابن خلدون هذا الاستعمال ، حينما تحدث عن الصنائع وعدّ من جملةتها صناعة الغناء والبناء.. وكذلك ما يرجع إليه من التزيين والأشكال المجسمة من الجص (١٣٢).

ويعد ما سبق أحد مقاصد الإمام محمد عبده الذي وضحها بكتاباته حين ذهب إلى أن الله خلق الإنسان عالماً صناعياً، ويسر له سبيل العمل لنفسه ،

(١٢٨) القلقشندي - صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ج ١ - ص ٧، نقلاً عن: صالح أحمد الشامي- الفن الإسلامي التزام وابتداع - ص ١٧.

(١٢٩) القلقشندي - صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ج ١ - ص ٧، نقلاً عن: صالح أحمد الشامي- الفن الإسلامي التزام وابتداع - ص ٣٦.

(١٣٠) النويري - نهاية الأرب في فنون الأدب- المقدمة - نقلاً عن: صالح أحمد الشامي- الفن الإسلامي - ص ١٧.

(١٣١) ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج ٧ - ص ٢.

(١٣٢) ابن خلدون - المقدمة- ص ٤٠٥ - ٤٠٨ (ط٤ - دار القلم - بيروت).

فكر وإبداع

الإمام محمد عبده مجدداً (مشكلة الجمال والفن)

وهده للإبداع والاختراع ، وقدر له الرزق من صنع يديه، بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه فهو على جميع أحواله من ضيق وسعه وخشونة ورفاهة، وببید وحضارة صنيعة أعماله، أقواته من معالجة الأرض بالزراعة ، أو قيامه على الماشية، وسرايله وما يقيه الحر و البرد والوجى من عمل يديه نسجا أو خصفا، أكنانه ومساكنه ليست إلا مظاهر تقديره وتفكيره ، وجميع ما يتغنمه فيه من دواعي ترفه ونعيمه إنما هي صور أعماله ومجالي أفكاره ، ولو نفّض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط كفيه للطبيعة ليستجديها نفسا من حياة لشحت به عليه، بل دفعته إلى هاوية العدم^(١٣٣) .

وبهذا الرأي يتفق محمد عبده مع التوحيدي حين عرف الفن بالصناعة، وأن الفن هو الإنسان مضافا إلى الطبيعة، مادام دور الصناعة هو تسجيل ما تميله النفس الناطقة على الطبيعة وتكيف الطبيعة مع حاجات الإنسان النفسية والعقلية^(١٣٤) .

ومما لا شك فيه أن الصناعة هي مبدأ الفن، فالفن في حقيقته هو نشاط صناعي يقوم على التركيب والبناء.

ويتفق رأي محمد عبده في صيغته للنشاط الصناعي بالصبغة الفنية مع ما أقره شارل لالو (Ch- Lalo) (١٨٧٧ - ١٩٥٣ م) من أن الفن - بالمعنى الواسع لهذه الكلمة - إنما هو عملية التحوير أو التغيير التي يدخلها الإنسان

^(١٣٣) محمد عبده - الإسلام دين العلم والمدنية - ص ٤٩ .

^(١٣٤) أبو حيان التوحيدي- المقابسات - م ١٩ - ص ١٦٤ .

على مواد الطبيعة، أو هو على حد تعبير بيكون (الإنسان مضافاً إلى الطبيعة)، وبهذا المعنى يشمل لفظ الفن شتى الفنون الميكانيكية والصناعية والتطبيقية، بما في ذلك فن الهندسة وفن الطب وغيرها من الفنون التي تستلزم من المهارة والصناعة ما قد يقربها من الفنون الجميلة كالآداب والموسيقى والنحت والتصوير وما إليها، والعنصر المشترك بين هذه الصور المختلفة من (الفن) إنما هو فكرة (الصناعة) أو (الإنتاج) ، أو ما كان يعبر عنه اليونان (بوطيقا) الذي كان يعني عندهم (الإنشاء) ، ولفظ (تكنيك) الذي كان يشير لديهم إلى (الصناعة) ، بمعنى عام^(١٣٥) .

أن المتأمل للدين الإسلامي يدرك أن له رسالة في رأي محمد عبده- تتضمن في بعض أقسامها الارتقاء بالفنون حتى تقوم بدورها، وقد عدَّ اختراع الآلات القاتلة وإتقان العلوم والتبحر فيما يلزمها من تقدم في الطبيعة والكيمياء والهندسة ضرورية، وأن المهارات العلمية في العلوم والتكنولوجيا هي من الفنون الواجب إتقانها والبراعة فيها تلبية لمتطلبات الدين وتحقيقاً لأهدافه حيث قال:

" فالناظر في أصول هذه الديانة (الإسلامية) ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل، يحكم حكماً لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أول ملة حربية في العالم وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة وإتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر

(١٣٥) د. زكريا إبراهيم - مشكلة الفن - ص ١٨ - ١٩.

الأنفال والهندسة وغيرها، ومن تأمل في آية " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ" (١٣٦) أيقن أن من صبغ بهذا الدين، فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل له سبيلها والسعي إليها بقدر الطاقة البشرية فضلاً عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه (١٣٧).

ويرى محمد عبده أنه لا بد للإبداع الفني والجمالي من ركائز تساند الطبيعة وتكون متكافئة لها، مثل الاستفادة من خبرة الآخرين، وصقل الفطرة بالعلم النظري والتجريبي ليكمل الإبداع حيث قال: " وهو في صنعه وإبداعه محتاج إلى أستاذ يتقفه وهاد يرشده، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشتة وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل وليقتدر أن يعمل، فصنعتة أيضاً من صنعه، فهو في جميع شئونه الحيوية عالم صناعي كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد عن أثارها، حاجته إليها كحاجة العامل لآلة العمل، هذا هو الإنسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه" (١٣٨).

ويتضح من النص السابق أن محمد عبده في تعريفه للفن والإبداع بأنه هو الإنسان مضافاً إلى الطبيعة فإنه يشير إلى أن الفنان يتناول بعض مواد الطبيعة ليخلع عليها ماهية تبرز أهميتها وجماليتها لدى المتذوقين كالذهب والماس وكذلك الخزفيات التي يحولها بمهارته وحساسيته إلى موجود مطلوب يلهث حوله الآخرون ولكن في صبغته الجديدة التي أصبغها بها هذا الإنسان الفنان

(١٣٦) سورة الأنفال الآية ٦٠.

(١٣٧) محمد عبده - الإسلام دين العلم والمدنية - ص ٥٢.

(١٣٨) محمد عبده - الإسلام دين العلم والمدنية - ص ٤٩.

المبدع برهافة حسه وسبقه لإدراك ما فيها من جماليات، فالطبيعة كالقيثارة بها كافة الأنغام والإيقاعات ولا نقف عليها إلا إذا استخدم تلك القيثارة موسيقار حائق ماهر أخرج لنا من خلالها تلك الإيقاعات التي تشجينا وتجعل النفس تطرب لها .

ويتعجب محمد عبده من أحوال المسلمين الذين يتهاونون في العناية بالبراعة في فنون القتال والفنون العسكرية، وفي اختراع الآلات حتى تفوقت عليهم الأمم الأخرى فيما كان من المفروض أنه أول واجب عليهم، وقد وعدّ محمد عبده المهارات العسكرية وما تتضمنه من خطط عسكرية وقدرات قتالية وإمكانات آلية من جدد وعتاد هي من الفنون الواجب إتقانها والبراعة فيها والتي تدخل في دائرة الفرض والواجب على الأمة الإسلامية، وأن التقصير فيها هو ذنب كبير حيث قال:

" ومن لاحظ أن الشرع الإسلامي حرم المراهنة إلا في السباق والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرّن عليها، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات.. إذ يراهم يتهاونون بالقوة ويتساهلون في طلب لوازمها وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال، ولا في اختراع الآلات، حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم ، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفهم واستكاثروا لها ورضخوا لأحكامهم"^(١٣٩).

(١٣٩) المصدر السابق - ص ٥٢

والإمام محمد عبده بذلك قد كتب صفحة في كتاب التجديد الإسلامي، تجديد حياة الأمة بتجديد الفكر الذي يحكم هذه الحياة، وأبرز لهم قيمة الجمال الحسي والعقلي في بناء المجتمعات وكيفية الارتقاء بها وأن الفن كنشاط إنساني بعيد عن الشرك، واللغو، والعبث يهدف إلى تحقيق الجمال وأن الفن في حقيقته هو نشاط صناعي تحتاج إليه الأمم للنمو والارتقاء.

الخاتمة

- ١- لم يكن التجديد عند الإمام محمد عبده مقتصرًا علي إحداث تغير ذاتي داخل الفهم الإسلامي ، أي لم يكن رد فعل لتخلف المسلمين في الأحداث الاجتماعية والفكرية فحسب، وإنما شمل اتجاهه التجديدي رد الفعل الإسلامي إزاء تحدى الحضارة الغربية وسيادة العلم والفلسفات المختلفة القادمة من الغرب، مع الاستفادة الإيجابية من حقيقة التأثير والتأثر في الواقع المدني والعمراني.
- ٢- تعد رسالة التوحيد مثلاً للمنهج التجديدي العقلاني المستنير، وكذلك موضوعها وهو (علم التوحيد) الذي يعتبره الإمام محمد عبده ركن العلم الشديد، كما يتجلى في أسلوبها خصائص أسلوب الإمام كراندي في التجديد للغة هذه الأمة وأسلوب كتابتها، بعد عصر الركاقة والمحسنات اللفظية.
- ٣- تعد مسألة الجمال والقبح عند محمد عبده إحدى مجالات التجديد الجديدة بالاهتمام والإحياء، وذلك للوقوف على حقيقتها في الأفعال والأعمال لما لها من أثر بالغ على الواقع النظري والعملية للأمة الإسلامية، ولأهميتها البالغة في القضاء على الوهن والذبول في حياة الفرد والمجتمع ، حيث افتقد المجتمع من كثرة الاعتماد على القبح القدرة على الإحساس بالجمال الحقيقي، وفقدت الأمة الهمة والنشاط والرغبة في التجديد والعمران مما أحدث خللاً في العلاقات بين الأفراد ، وكذا إيقاع حياتهم.

- ٤- تعد مهمة الجمال عند الإمام محمد عبده هي الارتقاء بروح الإنسان على درب الإدراك والاستمتاع بآيات الجمال الإلهي في هذا الكون، وبالتالي هي سبيل لصياغة الإنسان الرباني الذي يدرك معنى أن الله جميل وأن ربانية الإنسان رهن بتشوقه وتعلقه وسعيه على درب التخلق بالأخلاقيات الجميلة، درب الوعي بالجمال الإلهي المبتوث في هذا الوجود، وأيضاً الاستمتاع بلذات هذا الجمال.
- ٥- قسم الإمام محمد عبده الجمال إلى جمال حسي وجمال عقلي، وأن الجمال الحسي منه ما هو في الإنسان ومنه ما هو في الكون والطبيعة، وأن الجمال الإنساني يختلف فيه الأنواق بينما لا تختلف الأذواق في الجمال في الكون والطبيعة.
- ٦- إن الجمال عند محمد عبده يكون في الانتلاف والتناسب والنظام .
- ٧- إن التمييز بين الجمال والقبح عند الإمام له أهمية كبيرة ودور عظيم في قيام الصناعات المتنوعة ، والرقى والعمران.
- ٨- أ يقن الإمام أهمية الجمال الظاهري من زينة ونظافة وحلى، على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية، والوقوف عند الحدود الشرعية بما يكفل مصالح كافة البشر وتستقيم به الحياة.
- ٩- إن الجمال الحسي عند الإمام منه ما هو جميل بذاته ، ومنه ما هو جميل بآثره.

١٠- إن الجمال الظاهر والنعم والمنافع الحسية التي هي من خلق الله ونعمه على الإنسان - عند محمد عبده - تدرك بالحس لكن لا بد من إدراكها بالعقل لينفذ إلى قوانينها وأسررها وحكمتها، أي أن الجمال الحسي تعلو منزلته وترتقي بإعمال العقل.

١١- إن الجمال العقلي لا يقل أهمية ووضوحاً عن الجمال الحسي وإن اختلفت موضوعاتها إلا أن الجمال العقلي لا يدرك إلا لأنفس عارفيه العاقلة وأصحاب البصيرة.

١٢- إن الجمال العقلي عند الإمام هو الجانب غير المنظور بذاته ولكنه منظور بآثاره، وإنه الجانب الأكبر أهمية والأعظم أثراً، فالظاهر الحسي مرآة تنعكس عليها صفحة الباطن، وذلك يدل على أن هناك وشائج قوية بين جمال الظاهر الحسي وجمال الباطن العقلي.

١٣- إن الجمال الحسي عند الإمام غالباً ما يقوم على ما يترتب من أثر الأفعال فيما يتعلق باللذة والألم، بينما يتعلق بالنافع والضار فيعد من جمال المعقولات، وبذلك قد ربط الإمام بين الجمال العقلي والمنفعة.

١٤- إن الجمال العقلي القائم على التفرقة بين النافع والضار عند الإمام ربط بينه وبين الخير والشر، مما جعله محوراً للتمييز بين الفضيلة والرذيلة، مما يعطي من قدره، ويزكي أثره وتوابعه في قوة الأمم وعمران مجتمعاتها وعزتها وسعادة أفرادها.

- ١٥- يعد المنشأ الاجتماعي أحد مناشئ الجمال العقلي والحسي عند الإمام لما له من أثر فعال على التربية الوجدانية والنفسية للأفراد، وكذا إيقاع الحياة ومظاهرها.
- ١٦- جمع الأمام محمد عبده بين محاسن الفكر المعتزلي والفكر الأشعري حين أقر بأهمية العقل لمعرفة الشرع، وبأهمية الشرع في الحفاظ على العقل من الشطط والتردي، وكذا بأهمية تفعيل العقل في إطار النقل للوقوف على أوجه الحسن والقبح في الأشياء المستجدة والتي لم يتناولها الشرع، وحسن الأفعال وقبحها عنده قائم على النفع والضرر والخير والشر أي النفع الدائم والخيرية الدائمة.
- ١٧- إن الإمام محمد عبده لم يحزو حزو التحيز والتحزب للمذاهب والفرق، إنما حاول الاستفادة من الإيجابي بكل منها بما يتناسب مع واقع الزمان والمكان والمصالح المرسله، ويحافظ على الدين والنفس والعقل والنسل، ففعل العقل في إطار النقل، وأعلا من قيمة الشرع والعقل.
- ١٨- أن هناك من الأعمال الحسنة ما لا يمكن الوقوف على النفع فيه في الحياة الدنيا وإنما يترتب على أثره النفع في الحياة الآخرة، وهو ما يحتاج العقل فيه بالضرورة إلى الاسترشاد بالشرع والاهتداء به.
- ١٩- إن في الأعمال ما لا يمكن إدراك حسنها أو قبحها، ولكنها تحسن وتقبح تبعاً للأمر بها أو النهي عنها حيث يتوقف حسنها وقبحها على الأوامر الشرعية.

٢٠- لقد كان لمحمد عبده موقفاً بارزاً تجاه الجمال الطبيعي قدم من خلاله رؤية جديدة جديرة بالوقوف أمامها للتمتع والتفحص والاستخلاص، فاعتبر الجمال الطبيعي هو مجلي للإبداع الإلهي، ولما بلغت القوانين الضابطة للطبيعة حد الكمال والإتقان والإبداع فلا بد أن يكون خالقها أكثر كمالاً وأثبت برهاناً من المستدل بواسطته.

٢١- إن الجمال في هذا الكون مقصد رئيسي من مقاصد الله سبحانه وتعالى وذلك يتضح في قوله تعالى: (الذي أحسن كل شيء خلقه). فقد أحسن الله كل شيء خلقه، والإحسان هو بلوغ الغاية في أداء المهمة التي أعد لها ذلك الشيء، وهو في الوقت نفسه تأكيد على مراعاة جانب الحسن والجمال.

٢٢- أن الله سبحانه وتعالى جعل العلم واكتسابه من قبل الإنسان مصدراً من مصادر الجمال ومظهراً من مظاهر الحسن له، فيه يكتسب العديد من المواهب والحكم، وبه يرتقي حاله ويضبط إيقاع حياته، ويحسن مظهره ومعاشه وصحته، ويصح فكره.

٢٣- إن كل شيء حيثما امتد البصر متقن الصنع، بديع التكوين، يتجلى فيه الأحكام والإتقان، وإذا كان الأمر متعلقاً بصنعه الله تعالى، فالإتقان هنا وصف بالجمال، وكل إتقان للحق لا بد أن يصل إلى الجمال، إن الحسن مقصود في هذا الخلق الذي أوجده الله تعالى، ولا غرو في ذلك، فإن الصنعة تدل على الصانع، وصنعة الله تعالى لا بد أن تكون تعبيراً عن

الكمال الذي ستر بالجمال، وليس هذا من باب الصدفة ، فلا صدفة في هذا الوجود والدليل على ذلك قوله تعالى: "فإننا كل شيء خلقناه بقدر".

٢٤- لابد من التفكير والتدبر في نظام خلق الكون كمجلى للإبداع الإلهي وكأثر من أثار رحمة الله وجماله وجمال إبداعاته وخلقه.

٢٥- يعد الإمام محمد عبده من أبرز رواد التجديد باجتهاده وتجديده في مجال الفن، حيث نبه على دور فنون التشكيل سواء رسماً أو نحتاً أو تصويراً النافع والضروري في تسجيل معالم الحياة وحفظها ، وفي ترقية الأنواع والحواس، والاقتراب بالإنسان من صفات الكمال، الأمر الذي يضيف إلى تجديده في الدين والأدب واللغة قسمة أخرى تجعل له فضلاً لا ينكر في السعي لتجديد حياة الأمة.

٢٦- تعد الرسوم والتصوير عند محمد عبده توثيقاً تاريخياً للأحوال الشخصية والمدنية للمجتمعات على مدار التاريخ مما يساعد على فهم الأحداث ، وتعد مصدراً من مصادر المعرفة التي يفسر ويفهم بها التاريخ.

٢٧- من منافع الفن عند الإمام محمد عبده أنه ينقل العواطف الكامنة في النفس، ويفصح عنها بشكل فصيح جذاب.

٢٨- ومن منافع الفن دوره في حفظ تراث الأمة على مر الأزمنة، وما يعنيه ذلك من حفظ للعلم وتخليده، والحقيقة والتاريخ، وتحقيق للتواصل والاتصال بين السابقين واللاحقين ، و كي تظل شاهدة فاعلة لمن يأتي من أجيال.

- ٢٩- عدّ محمد عبده الفن البعيد عن اللهو والعبث وكذلك الشرك بالله له أثر في المنفعة والفائدة ، وهو من المباحات ، وأما تحريمه فيتوقف على ما يؤديه الفن من ضرر.
- ٣٠- ربط الإمام محمد عبده بين الجمال الفني والمنفعة الحياتية بجانب المتعة والبهجة.
- ٣١- أقر الإمام محمد عبده بعلاقة وثيقة بين الفن والعلم، وعدّ الفن أفضل الوسائل التعليمية لتعلم العلم وتنفيذ اختراعاته.
- ٣٢- عرف محمد عبده الفن بالصناعة ، وعدّ العلوم العسكرية والطبيعة والكيمياء والهندسة واختراع الآلات القاتلة من الفنون الواجب إتقانها والبراعة فيها تلبية لمتطلبات الدين وتحقيقاً لأهدافه.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً: المصادر:

- ١- أبو حامد الغزالي (الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي) :
إحياء علوم الدين- تحقيق طه عبد الرؤوف سعد - مكتبة الصفا- القاهرة-
ط١- ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- ٢- أبو حيان التوحيدي (على بن محمد بن العباس): الإشارات الإلهية -
حققه وقدم له دكتور عبد الرحمن بدوي -وكالة المطبوعات- الكويت-
دار القلم- بيروت - ط١ - ١٩٨١م.
- ٣- أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة - حققه أحمد أمين وأحمد الزين
، نشر دار مكتبة الحياة- بيروت - (د.ت).
- ٤- أبو حيان التوحيدي: ثلاث رسائل (رسالة في علم الكتابة) - عنى
بتحقيقها ونشرها دكتور إبراهيم الكيلاني- منشورات المعهد الفرنسي
للدراسات العربية - دمشق - ١٩٥١ م.
- ٥- أبو حيان التوحيدي: المقابسات - تحقيق السندوبي- دار الكتاب الإسلامي
- القاهرة- ط٢- ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م.
- ٦- أبو حيان التوحيدي: الهوامل والشوامل- تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد
صقر، لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م.

- ٧- ابن خلدون: المقدمة-دار القلم- بيروت.
- ٨- شهاب الدين أحمد بن عبد الله القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م):صبح الأعشى في صناعة الانشا- القاهرة- ١٣٣١هـ/١٩١٣م.
- ٩- ابن عبد ربه: العقد الفريد- دار الكتاب العربي- بيروت- ١٩٨٣م.
- ١٠- أبو الفتح الشهرستاني (الإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني) : نهاية الإقدام في علم الكلام- تحرير ألفرد جيوم - نشر مكتبة المثني - بغداد - (د.ت).
- ١١- القاضي عبد الجبار (القاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي): شرح الأصول الخمسة - تحقيق دكتور عبد الكريم عثمان - مكتبة وهبة - القاهرة - ط ١ - ١٣٨٤ / ١٩٦٥م.
- ١٢- القاضي عبد الجبار : المغني في أبواب التوحيد والعدل- نشر وزارة الثقافة المصرية- القاهرة - (د.ت).
- ١٣- ابن القيم الجوزية (الإمام شمس الدين أبي عبد الله بن الشيخ أبي بكر): روضة المحبين ونزهة المشتاقين - تحقيق عبد الله المنشاوي- مكتبة الإيمان - المنصورة - (د.ت).
- ١٤- محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام- مطبعة المنار- ١٩٣١م.
- ١٥- محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدينة - تحقيق دكتور محمد عاطف العراقي - دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - ط ١- ١٩٩٨م.

١٦- محمد عبده : رسالة التوحيد - تحقيق دكتور محمد عماره - دار الشروق - القاهرة - ط ١ - ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

١٧- محمد عبده : المسلمون والإسلام - كتاب الهلال - عدد (٤١٧) - القاهرة (د.ب.).

١٨- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب- دار الكتب المصرية- القاهرة- ١٩٧٥م.

ثانياً: المراجع

١٩- أبو صالح الألفي : الفن الإسلامي (أصوله فلسفته مدارس ه) - دار المعارف - القاهرة - ط ٣ - ١٩٨٤م.

٢٠- أحمد محمود صبحي (دكتور): بعض جوانب التجديد في الفكر الإسلامي - القاهرة - جزء من كتاب غير منشور.

٢١- أحمد محمود صبحي (دكتور): في علم الكلام (دراسة فلسفية لأراء الفرق الإسلامية في أصول الدين) - مؤسسة الثقافة الجامعية - الإسكندرية - ١٩٩٢م.

٢٢- زكريا إبراهيم (دكتور): فلسفة الفن في الفكر المعاصر- مطبعة دار مصر للطباعة - القاهرة - ١٩٦٦م.

٢٣- زكريا إبراهيم (دكتور): مشكلة الفن - مكتبة مصر - القاهرة- (د.ب.).

- ٢٤- سيد قطب: في ظلال القرآن - دار الشروق - لبنان - ١٩٨٧م.
- ٢٥- عبد الرؤوف برجاوي : فصول في علم الجمال- دار الآفاق الجديدة- بيروت - ١٩٨١م.
- ٢٦- عبد العاطي محمد أحمد : الفكر السياسي للإمام محمد عبده - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٧٨م.
- ٢٧- عبد الغفار عبد الرحيم: الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير- مطبعة الحلبي-
- ٢٨- عثمان أمين (دكتور) : رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده - دار الثقافة العربية للطباعة - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٦٥م.
- ٢٩- محمد عاطف العراقي (دكتور): العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر قضايا ومذاهب وشخصيات- دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة - ١٩٩٨ م.
- ٣٠- محمد على أبو ريان (دكتور) : فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة- دار المعارف - القاهرة - ط٤ - ١٩٧٤م.
- ٣١- محمد عمارة (دكتور): الإسلام والفنون الجميلة - دار الشروق - القاهرة - ط٢- ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥م.
- ٣٢- محمد عمارة (دكتور): الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - القاهرة.
- ٥٢٧ -

ثالثاً: المعاجم و التراجم

٣٣- أ.ي. فنسنك (دكتور): المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف- مطبعة بريك في مدينة ليدن- ط ١.

٣٤- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد) ت ٦٨١/١٢٨٣م: وفيات الأعيان وأنباء الزمان- ط محمد محي الدين عبد الحميد- القاهرة- ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.

٣٥- خير الدين الزركلي : الإعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين- دار العلم للملايين- ط ٥ - ١٩٩٠م.

٣٦- الصفدي : الوافي بالوفيات- المانيا- ١٩٦٢م.

٣٧- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن- دار الشعب- القاهرة- (د.ت).

رابعاً:المجلات

٣٨- محمد رشيد رضا : مجلة المنار - عدد ٣٠ ذو الحجة سنة ١٣٣٠ هجرية.

خامساً:المراجع الأجنبية

38- Ali Dessouki , (Towardsa Comparative Study of Secularization Islam and the Modern Age , Vol 11, no , 2 (1971).